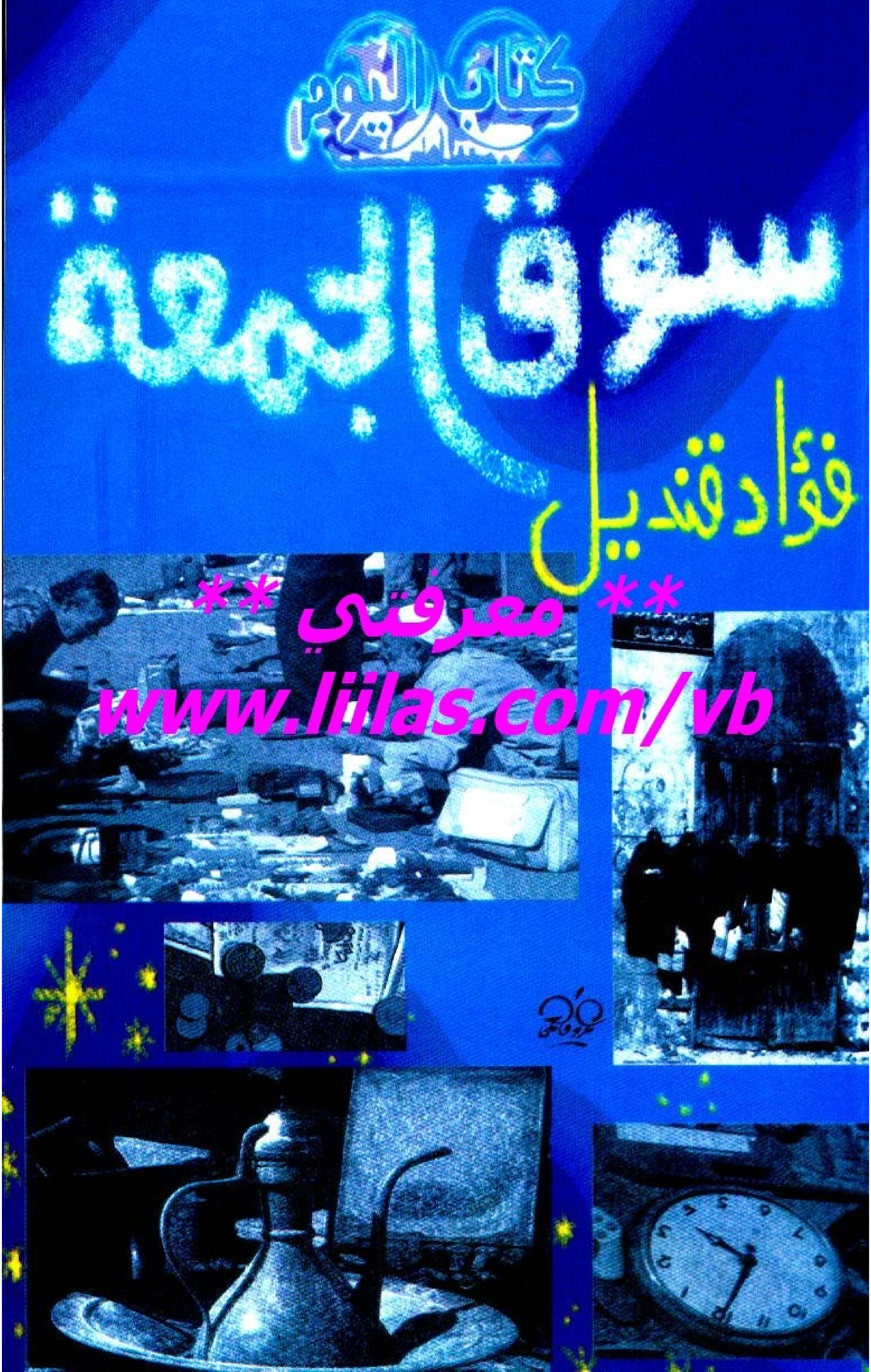

كتاب اليوم
سوق الجمعة
فؤاد قنديل

كتاب اليوم

رئيس مجلس الإدارة

د. محمد عهدى فضلى

رئيس التحرير

نــــــــــــــوال

سوق الجمعة

فؤاد قنديل

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

العدد رقم ٥١٣
أكتوبر ٢٠٠٨

يصدر أول كل شهر
عن
دار أخبار اليوم

٦ شارع الصحافة
القاهرة
ت: ٢٥٩٤٨٢٢٣
تليفاكس: ٢٥٧٨٤٤٤٤

الغلاف:
عمرو فهمى

الإخراج الفنى:
عبدالقادر محمد على

أسعار البيع خارج مصر

سوريا ١٠٠ ل.س - لبنان ٤٠٠٠ ل.ل - الأردن. دينار. الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريال - البحرين ١ دينار. قطر ١٠ ريال - الإمارات ١٠ درهم - سلطنة عمان ١ ريال. تونس ٢ دينار - المغرب ٣٠ درهم - اليمن ٣٠ ريال فلسطين ٢ دولار - لندن ٢ ج ك - أمريكا ٥ دولار - أستراليا ٥ دولار استرالى - سويسرا ٥ فرنك سويسرى.

العنوان على الإنترنت
www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى
ketabelyom@akhbarelyom.org

هذا الكتاب وهذا الكاتب

عندما يفاجئنى الكاتب القدير فؤاد قنديل بعمل جديد ، تنتابنى السعادة . فأنا أعلم أنه يحمل فى أعماقه شحنات من الإبداع بلا حدود . لذلك فعندما قدم لى مجموعته القصصية (سوق الجمعة) توقعت أن أقرأ نصاً بديعاً ، وتمنيت أن يشاركنى كل قراء "كتاب اليوم" الاستمتاع به

وهذا ليس جديداً على الكاتب والأديب فؤاد قنديل الذى نشرنا له من قبل فى "كتاب اليوم " كتاباً من أهم كتب السلسلة وهو كتاب "ثقافة المصريين " .

فهو صاحب الإنتاج الأدبى الراقى فى فن الرواية والقصة القصيرة فله عدة روايات منها " السقف " ، " روح محبات " ، " الحمامة البرية " والقصص القصيرة " عقدة النساء " ، "العجز " ، " زهرة البستان " ، " شدو البلابل والكبرياء " ، " الغندورة" ، " عسل الشمس " وحائز على العديد من

الجوائز وكان آخرها : جائزة نجيب محفوظ من المجلس الأعلى للثقافة عام ١٩٩٤ ، وجائزة الدولة للتفوق فى الآداب من المجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٥.

وأعمال فؤاد قنديل تستحق المتابعة والتركيز أثناء قراءتها لأنه يسحب القارئ إلى عالم صنعه بنفسه وينسج هذا العالم بخيوط هى مزيج من الواقع والخيال وكأنه يعيد انتاج الواقع .

وعندما أتصفح كتاب (سوق الجمعة) تلك المجموعة القصصية الرائعة أجد عالم قنديل جلياً فى أسماء قصصه فنجد " ثمر الجنة " و " يمامة خضراء بكعب محنى " و " زنجبارى " أما أكثر العناوين التى لفتت انتباهى فهو عنوان قصة " محمد جرجس "وكذلك " بيت النار " و " ندى الورد".

والآن أتركك عزيزى القارئ مع هذا العالم البديع من الجمال والفكر وأتمنى أن تجد المتعة الفكرية والعقلية والروحية مع سطور هذا الكتاب الجميل (سوق الجمعة) للأديب فؤاد قنديل.

نوال مصطفى
أكتوبر ٢٠٠٨

فى مديح الجمعة

منذ وعـيت أعـشق الجـمـعـة وأنتظرها بشـغف وأتمنـى لو أسـتطيع دفع الأيام نـحـوها، لأنهـا الحـرية والانطلاق والوهـج، وهـى اللهـو والفن والطعـام، فكم أرجـأت الوالدة أشـهـى المأكولات لـ يـوم الجـمـعـة حـتـى يـتـسع الوقت وتلقى من الجـمـيـع المساعدة، وبالذات الخبـيز فى القرية، ولم أكن أكف فى صباى عن لعب مباريات الكرة طوال ساعات النهار من يوم الجمعة.

ولما كبـرت تدخل الشـبـاب والعنفـوان فى نظرتى إليـهـا.. فرأيتـهـا أنثى بضة وجميلة.. مشرقة وناعسة الطرف ذات دلال.

الجـمـعـة تاج على رأس أيام مـعـتـقـة.. شـجـرة تحط علـيـهـا العصافير الباحثة عن الأغنيات والعبير وحنان الأمهات الوضيئ.. تتمـتع بنهار رمـضـانى وليد ناعم الملمس حلو الابتـسام.. جمـالهـا يكمن فى أنها أقل الأيام ضجة وصراخا ونهبا وافتراسا.

ها هى الروائح تقـفـز إلى أنفى مـتعـانقـة.. روائح صابـون الغسيـل والاسـتـحـمـام وروائح الطـهـو وروائح الـنعـاس والفل، روائح الفـطور والطـيور التى مضت تحلق فى السمـاوات وتحط على الأرض دون أن تزعجها جلبة الخارجين.

الجـمـعـة تفـتح عيـنـيها وتطل على الكون وتنتظر فى شـوق آيات المحبـة التى تتـأهب لهـا منذ بداياتهـا الأولى مع مـسـاء الخـمـيـس،

الجمعة ذكر وأنثى فى جسد واحد.. ذكر بالليل وأنثى بالنهار.. الجمعة الذكر تسعى لوضع بذرة الخلق وترعاه بالحنين وصدق الشعور والوعد الجميل على الوفاء الدائم والحماية إلى أن يتحقق الأمل مع طلوع النهار.

والجمعة الأنثى هى الحضن الكبير.. تفرش فستانها المزين بالشمس والحب والرضا والالتئام والانسجام والطهر والقداسة.

الجمعة الأنثى المتلهفة لعناق البشر فى تجمع ودود ونبيل.. الجمعة الأنثى تلملم أطفالها من كل درب وتصحبهم إلى النزهة فى حدائق البهجة. حيث النعناع والحب.. النشوة والياسمين.. الحنان والقرنفل.. العطف والريحان.. المودة والسوسن.

الجمعة بذكورتها وأنوثتها لا تضيق بالحياة، بل هى بداية الدورة الجديدة للحياة بعد النصب والعرق والخمود.. الجمعة عرس وألق.. الجمعة بيضاء مشرقة خالية من غيم الضغينة.. عبيرها الفواح يتنقل برهافة بين الأجساد والقلوب والعيون، ويحط على الشعور وفى الشعور.

الجمعة هى اليوم الذى يعقب الخميس من أيام الأسبوع، والجمعة بهذه الإشارة ليست أكثر من محاولة لتجسيدها وتحديدها فى سياق زمنى، لكنها فى الحقيقة ذات دلالة أكبر بكثير، إنها مركز لأطراف متعددة، وشمس تدور حولها كواكب، وبحيرة تصب فيها جداول وتخرج منها أنهار.

الجمعة تعنى الجُمَّاع، أى تجميع المتفرق ولم المشتت والتقريب بين المتباعدين، وضم مختلف الأطراف، كما فعل المصطفى صلى الله عليه وسلم حين حسم مشكلة الحجر الأسعد بين المتنافسين، إذ وضعه فى ردائه واشترك الجميع فى حمله.

والجمعة إشارة إلى الجميع، الذين يشتركون وينعمون ويتبادلون ويتساوون فى كل شئ.. الجمعة إشارة إلى الجماعة. والجمعة تعنى الجماعية والجمعية، أى الاحتشاد بالكل لعمل الخير أو الدعوة للحق أو تأمل الجمال فى معرض، أو بذل الجهد الجامع للابتكار العلمى والأدبى، ويلزم لذلك فى بعض الأحيان

مجمع والجمعة هى المجموع أى حاصل الجمع، ويعنى فوق دلالاته الحسابية الآثار المترتبة على الجمع والتجمع، والجمعة إذن تعنى الملتقى.

الجمعة قد تعنى الألفة والمودة والتقارب، لأن التقارب اجتماع، والألفة من نتائج الاجتماع، والمودة تعقب الألفة.. والجمعة تعنى الجامعة، وقد كانت يوماً للعلم والدرس ولا تزال حيث الكل يومها للتعلم، فهى جامعة.. كما كانت فرصة لاستنفار قوى المقاومة والاتفاق على كلمة سواء.

الجمعة أيضاً جماع بين الذكر والأنثى، أى الجمع بينهما بما يؤكد الأواصر وينتج الجموع.

ومنها سمى الجامع الذى يجتمع فيه الكل لصلاة الجمعة والعيدين وغيرها.

ومنها يقال الكلام الجامع أى قليل اللفظ كثير المعانى وهو الكامل فى موضوعه بحيث لا تنقصه إضافة.

ومنها العالم الجامع أى صاحب العلم الغزير فهو المرجع فى تخصصه.

ومنها أمر جامع أى أمر جلل وخطر يستأهل اجتماع الخلق للعلم به وبحث الرأى فيه.

وبعد:

ليس ذنبكم أنى أعشق الجمعة حتى بعد أن همست لى على استحياء قائلة إنها لم تكن فى كل الأحوال بريئة.

.. أيتها الجمعة..

أشعر دائما أن بأعماقك لا تزال أسرار كثيرة، وإنك شعر ونثر، وإن فى روحك وحى محمد وفى عينيك وجه عيسى، وهذى القصص مثل القرابين أطرحها تحت أقدامك المقدسة، ففيها نفحات من دماء وأرواح بشر، تغلغل فيهم غرامك الذى لا تسمح أحوالهم بالتعبير عنه، وقد حاولت من جانبى، فتقبلى ما أهرقت على شرفك.. والإبداع أقدار ومقادير وأرزاق.

ف.ق

ثمر الجنة

سمعت عنه كثيرا فرأيت أن أزوره. أدور فيه وأغوص.. أتعرف وأسمع.. أسأل وأجمع.. أحلل كما تعودت أن أفعل مع كثير من التجمعات.. أثق أن المكان جاذب.. يقولون رواده فى اليوم الواحد يتجاوز عددهم نصف المليون من طبقات وشرائح مختلفة، خاصة المتوسطة والدنيا.. معظمهم من الموظفين والعمال والعاطلين.

بالإضافة إلى جاذبية المكان فهو لا شك عينة مثالية لقاع المجتمع.. لن يضطرك البحث لتعقبها فى الأحياء المتباعدة، فضلا عن تعذر السيطرة على الشخصيات المنطلقة فى الشوارع والحارات لجمع البيانات، ولزوجة الفضوليين وأنوفهم المزعجة.

هناك تلتقى وتعيش فئات تعرفها، وفئات غريبة عليك، لكنها جميعا دون شك لديها بعض الأسرار.. ولديها ثقافة القيعان والسراديب.. المختبئ والمتوارى.. بعض ملامح الهاربين من ثأر أو سجن أو من فضيحة، أو من أعمال غير كريمة، فقد بلغنى أن بعض البائعات كن ممن عملن سنوات كبنات ليل ثم تخلصن من أعباء هذه المهنة الرديئة التى لا يعيبها العار فقط والازدراء الاجتماعى، ولكن السخط الذى يأكل روح الممارسات أنفسهن بسبب اضطرارهن لاختيار هذا المصدر البشع للارتزاق، والسخط

لأنها مهنة لا تخلو من الخطر فكم ماتت زميلات لهن ذبحاً أو خنقاً أو ضرباً.

هذه النماذج البشرية إذن أساس عملى، ولعلها تكون مادة جيدة تفيدنى فى إعداد بحث رائع مطلوب أن أعده للترقى فى الجامعة، وأنا على ثقة من استثارة د. كيدمان الذى سيقفز فرحاً وحماسة، وسوف يطلب المزيد.. ليته يسعى لاختيارى أستاذا فى أى جامعة أمريكية حتى لو تحت الأرض كما فعل مع د. يوسف النجار.

تغلغل فى أعماقى إحساس يقينى بأن هذه الزيارة سيكون لها جدواها بشكل يمكن أن يؤثر على مستقبلى العلمى.. المهم الرصد المتأنى، وأهم منه الصبر فقد يضيق بى من أسألهم، يريد الزبائن أن يشتروا، ويريد الباعة أن يبيعوا لا أن يشاركوا فى الحوار.

لبست كاجوال واضطررت أن أتخلى عن البايب فسوف يثير التعليقات والشبهات.. وضعت على رأسى قبعة رياضية نبيتى توحى بالبساطة والشبابية من ناحية وتغطى دائرة الصلع التى تتسع يوماً بعد يوم.. خطفت نظارة الشمس وانطلقت وحدى دون أن أسرب خبراً حتى لأعز الأصدقاء.

استقبلتنى الأصوات العالية والصخب.. ميكروفونات وصراخ.. معالم المشهد متراكمة ومتلاحمة.. بشراً وبضاعة.. المعروض فوق العربات والترابيزات مكدس ومهمل.. أكثره غير جديد.. بعض السلع صنعها أصحابها فيما يبدو تحت سلالم البيوت وفوق الأسطح أو فى الجراجات والخرائب.

فجأة صرخت سيدة كانت تسير إلى جوارى بين أكداس اللحم المتلاطم:

- يا لهوى.. سرقوا البُكْ.

عندما رمتنى بنظرة لافحة استولى الرعب علىّ.. تسللت بعيدا وتركتها تصرخ والبعض يسألها بلا جدوى ويواسيها، لكن الكل يمضى، فالطريق لا يحتمل الازدحام.. الباعة هم الذين صاحوا فى الناس كى يتحركوا.. لا يريدون وقف الحال.

- حصل خير يا جماعة.. ربنا يعوض عليكى يا ست.. وسَّع

طريق.

مال بائع على آخر وقال:

. عارفينها الحركات دى.

انسحبت بعيدا عن المنطقة الملتبسة وإن انطبعت صورتها فى رأسى فربما يكون لها مكان فى الدراسة.

لمحت سيدات فوق الأسطح المجاورة يتناولن فطورهن ويثرثرن ويضحكن حتى تستلقى بعضهن.. كن يستمتعن بالشمس الشتائية وأشعتها اللذيذة التى تدغدغ الأجساد.. بعضهن يفرطن البسلة ويلتهمن اليوسفى ويشربن الشاى فى وقت واحد.

يعلن أحد الباعة بأعلى صوت أن بضائعه مهربة من الجمارك ويرد عليه آخر بأن الملابس الفخمة التى يعرضها بملاليم مسروقة من شركة كذا ومحلات كذا ومول كذا.. وكلها أماكن مشهورة.. تستولى الدهشة علىّ بسبب هذه التصريحات الجريئة التى لا جزاء لها إلا السجن.

سيدة فى الركن تعد على وابور جاز الشاى والحلبة الحصى والقرفة لمن يريد، بينما رضيعها فى حجرها يقبض على ثديها الأبيض الممتلئ وقد خرج خصيصاً من مكمنه عبر فتحة مشقوقة من الرداء ليصب فى فم الرضيع ذى الوجه الأسمر ما يكفيه حتى يسكت. إلى جوارها عنزة تلتهم قشر اليوسفى ووراءها طفلة صغيرة نائمة ودافسة رأسها فى دفء وطراوة مؤخرة الأم، وإلى جوارها فيما يبدو أنه الزوج رجل أسمر نحيل وصامت مختص بالشيش والحجارة والمزاج بدا مشغولاً بتسليك الشيش بسيخ رفيع وطويل.

طبال يمسك بدف. ينقر عليه بحرفية كخلفية موسيقية لنداء بائع الملابس القديمة:

. الجينز بعشرين وتعالى شوف.. غريبة ياولاد.. الجينز بعشرين وتعالى بص.. إلبس واتهنا بعشرين..أبو مية بعشرين.

فجأة وبالغريزة أسرعت فتواريت وراء بائع ضخم يقف أمام بضائعه من المكانس مختلفة الأنواع.. لمحت سيدة تشبه تماماً

زوجتى السابقة التى لم تبق على ذمتى إلا عدة أشهر.. لم تختلف كثيراً عن التى سبقتها ولم تبق معى غير عام بحجة إنها لاحظت أن طباعى لا تتفق مع طباعها، واعترفت إنها قاومت الإنجاب منى منذ أول يوم لأنها لمست مبكرا صعوبة الاستمرار.

أشحت بوجهى بعـ يداً حتى لا تتعرف علىّ، ولو تعرفت لن تعبأ.. تتمتع طول عمرها بغطرسة فارغة.. لا ليست هى.. هيا.. السوق لا يسمح بمزيد من التذكر.

وجوه الباعة معرض مثـ ير من الملامح، كأن سوق الجمعة ليس سوقاً للبضاعة بقدر ما هو سوق للبشر.. بائعة شابة يبدو إنها عروسة جديدة خرجت للسوق بعد أيام قليلة.. كفوفها محنية ووجهها مرسوم بدقة بالذات الحواجب وشعر البشرة يبدو منتوفاً منذ أيام فالوجه الأبيض ناعم تماماً والكحل بزيادة، والطرحة ملفوفة بإحكام، الغوايش تبرق على الساعدين المكشوفين، لعلهما يستدرجان بنضارتهما بعض الزبائن.. حالتها المتوهجة والمختلفة تدل على أنها جاءت إلى السوق بعد أن استحمت واستمتعت بحمامها.. نفسى فى زوجة مثلها.. مطيعة وبلا شخصية.. لا عمل لها إلا إجابة مطالبى دون كلمة إلا عندما أسمح لها.. مشكلة المرأة المتعلمة إنها صاحبة رأى وهذا يدفعها للمقاومة والعناد، ورأيك فى العادة لا يعجبها. إلى جوار العروسة رجل جهم الملامح، بوجهه أخدود عظيم يشق الجانب الأيسر بالطول من السوالف حتى الذقن فى شكل قوس.. كـ يف قبلته زوجاً؟!.. ما زالت العائلات تمارس ضغوطاً على البنات خشـ ية العنوسة.. لابد أن تكون هناك صـ يغة لوقف هذه الضغوط والملاحقة.. لابد أن التعليم سيفيد.. خسارة بنت كهذه مثل فلقة القمر تتزوج من متشرد وبلطجى بحجة أنه حماية لها من المجتمع. ضل رجل ولا ضل حيطة.. فى حالة كهذه ظل الحائط أفضل كثيراً.

اجتذب نظرى رجل بدا كأنه يلبس قناعاً.. معالم وجهه كأنها لـ يست من صنع الله.. الأنف كبـ ير والفم واسع والعـ يون صغـ يرة تركب فوقها الحواجب الغليظة.. الأذنان كبـ يران.. الأغرب أن

البشرة ملساء تماماً كأنها من البلاستيك، لا ندوب فيها ولا أثر لشعر فى الذقن أو الصدغين، بينما هناك شارب كثيف.. شعره غليظ كأنه سلك.. رسم كاريكاتورى أو شخصية كارتونية من إبداع رسام فاشل.. أما الأصوات فتخرج من فمه بكل الطبقات والنغمات، وبعضها كأنها لحيوانات تتكلم فى فيلم.

كيدمان سوف يبهره البحث.. كم هو مشتاق دائما لمعرفة ما يجرى خلف الكواليس المصرية!.. قال كثيراً إنه على ثقة: إن الأبحاث حول الشخصية المصرية ربما تستغرق عشرات السنين على يد مئات الباحثين، لأن مصر بلد العجائب والغرائب وليس هناك سياق واحد ينتظمها أو يحدد ردود أفعالها فى أى زمن.. ابتعد الآن يا كيدمان.

مال فتى وقرص جارته الشابة فى أعلى فخذها. ابتسمت بغضب مزيف وضربت يده بشدة رقيقة.. عاود القرص واللمس والتحسيس إلى أن قفزت مبتعدة تنادى على كوز العسل الذى لا تهتم ببيعه.. تابعت البشر من الزبائن الذين يقلبون فى المعالق والسكاكين والأجهزة القديمة والملابس والتوابل وأدوات الزينة والملاءات والنجف والأحذية والنظارات حتى بلغت منطقة فسيحة لكنها محتشدة بالبشر. أسلمت نفسى لأمواجهم التى تدفعنى من الخلف بإصرار ناعم.. كم كبير من أحواض سمك الزينة.. الأسماك لا تكف عن الركض والحركة والصعود والهبوط والمروق بين غيرها فى مرونة وبراءة.. العيون أغلبها جاحظة.. حدقاتها تدور وتبحث وتحدق والأفواه تلتقط الطعام الذى لا أكاد أراه.. حديقة رائعة من الأسماك مختلفة الأشكال والأحجام والأنواع والألوان.. الألوان بالذات معرض فاتن للتناسق والتناغم والتصميم بما يؤكد أن الأسماك المصدر الأول لمصممى الأزياء على الأقل فيما يختص باختيار الألوان وهارمونية نغماتها.

عدد كبير، ربما بالمئات يلتف حول الأحواض ويحدق فى الأسماك.. لا يكتفى بالمشاهدة.. أغلبهم يسأل ويختار ويشترى.. لم أكن أتصور أن هناك من يهتم بهذه الأسماك إلا علية القوم

والأثرياء.. لكن شباباً كثيرين يشيرون إلى أسماك معينة ويشترون.. يسرع الباعة فى تعبئتها فى أكياس بلاستيك شفافة وملئها إلى المنتصف بماء دافئ.. حدثونى عن السمك وجماله وأنواعه وتكاثره.. كانوا يتحدثون بشغف وسعادة.. الوجوه مشرقة والعيون تلمع.. والكلمات تتزاحم وتتقافز فوق الألسنة بما يدل على إنها بالنسبة لهم.. أعز الهوايات.

قال لى أحدهم وقد لمس رغبتى فى السؤال:

. هذه السمكة إنجل وتلك البرتقالية فانتيل، والصغيرة السوداء كوى.

أسأله عن سمكة غريبة لها كيسان كبيران كبالونتين على جانبى عينيها.

. إنها دابل أيز.

أسأل عن طعام الأسماك وحياتها فى الماء.. يتدفق الجميع ويتنافسون فى الرد موضحين إنها تجرى فى الأحواض وتلعب وتحب وتمارس الجنس وتحمل وتفقس البيض.. الأحواض لها مواتير ومواسير بالكهرباء لتوفير الأكسوجين وتجديد المياه، ولتجعلها فى درجة حرارة معينة صالحة لحياة الأسماك.

معلومات كثيرة تتوالى عن الغذاء والجماع والقبل وتجهيز المياه والنظافة.. قال الكثيرون إنهم يجلسون أمام الأحواض بالساعات دون ملل.. عالم جميل يصرفنا عن عالم آخر يمتلئ بالقبح والضجيج.. عالم مريح للنفس. يغسل الهموم. يجعلك متفائلا وهادئاً ومستعداً للتسامح والتماس الأعذار لمن يخطئون.. إنه العالم الذى يرسم الطريق للحب.

ابتسمت، فقد كان كلاماً رومانسيا بشكل مبالغ فيه وربما غير حقيقى.. لكن الذى قاله هم الزبائن وليس الباعة.. عندما تحولت لأرى ما يجرى وقعت عينى عليها.. تسمرت.. فتاة بسيطة.. عيناها جميلتان واسعتان وخصلة من شعرها تتدلى على جبينها.. ملامحها دقيقة ومنمنمة غير أن شفتيها ممتلئتان حمراوان لم يخلقا إلا للقبل الطويلة العميقة حيث ينهل

العاشق من الرحيق المعتق ويسقى عمره وحياته وقلبه المتعطش.. تسمرت.

تقف خلف عمارة صغيرة من أحواض السمك.. انهمكت فى استخراج سمكات صغيرة صفراء من أحد الأحواض بشبكة فى حجم مغرفة.. تضع السمك فى كيس شفاف من البلاستيك به ماء دافئ.. صدر ممتلئ وخصر نحيل وشعر كثيف وطويل يتدلى حتى آخر سلسلة ظهرها، تتفجر بالصحة والشباب.. ترد على كل من يسأل بابتسامة.. لا تضيق بكثرة الأسئلة.. ثقافة سمكية متدفقة وبساطة مع خفة وحركة.. لمحتنى مع أنى كنت أقف خارج مدار زبائنها وأحواضها.. أمسكتنى متلبساً بنظراتى المتفحصة.. تزن وتتأمل وتدهش.. أدركت أننى لا أريد سمكاً وليس لدى حوض.

لا أظن أنها وحدها بين كل هذه الأحواض وفى مواجهة الزبائن.. حضر فى الحال أخوها حاملاً قبابا خشبية (فرونتورا) تماثل الوجهات العليا للمعابد الإغريقية والرومانية. رأيت مثلها فوق بعض الأحواض.. أضافت جمالاً للحوض الزجاجى.. وضع حمله على جنب ووقف أمام عمارة أخرى من أحواض السمك.. ظهره فى ظهر الفتاة تاركاً ممراً ضيقاً للمشترين.. تحدث إلى عجوز يجذب الأنفاس من الشيشة.. هو لا شك أبوه.

هذا هو اللون الذى أبحث عنه من الزوجات. هذا الجسم وهذه السن وهذا الوجه وهذا الذكاء وهذه البساطة وهذا الجمال.. كانت السابقات من عائلات معروفة وثرية، حتى من خطبتها وتخلصت منى قبل الزواج كن جميعاً يحملن فى أعماق قلوبهن شعورا بعدم الرضا الكامل من الزيجة كأنى عار.. قالت التى خطبتها بوضوح سافل: العزوبية ولا الجوازة العرة.. كدت أخنقها إذ أنا من أنا.. أستاذ جامعة يجلس أمامى الآلاف من الطلاب، منهم عشرات الطالبات يتمنين فقط أن ألقى عليهن نظرة. من السهل جدا أن يصيب الغرور النساء. وكثيراً ما تتسبب فى ذلك معاكسات الشباب الطائش فى الشارع، تلك المعاكسات التى لا غرض لها غير التسلية والتخلص من الملل، فتتصور بعض البنات أنهن حزن الجمال ومن

حقهن أن يتدللن لمجرد أن ولدا قال لهن وهو غافل: خف يا جميل علينا أو ارحمنا من عينيك القتالة.

قررت أن أتزوجها.. قطة أليفة لذيذة وناعمة.. لن أشبع من التهامها ولن تكون مزعجة. لطمنى اعتقاد بأن الشاب ربما كان زوجها.. دنوت منها محاولاً البحث عن دبلة فى أحد أصابعها.. لم أجد شيئا.. لمحتنى من جديد.. الذكية بنت الذكية رمقتنى بنظرة كأنها تسألنى:

. ما حكايتك ؟

ظللت واقفاً أتظاهر بالتحديق فى السمك حتى خفّت الرِّجْل قليلاً واختفى أخوها.. دنوت فجأة، وقلت لها:

. أنا أستاذ جامعة وإنتِ عجبتينى.. ممكن تتجوزينى.

كنت أحسب أنها ستتهاوى من طولها أو تسقط الشبكة من يدها.. نظرت إلىّ بغير رضا وقاستنى من أعلى لأسفل مرتين، ثم عادت لخدمة عشاق السمك. كان المفروض أن تهتم بمن طلب شراء البلطية.

أعرف أنى أحمق.. ليس كل الوقت بالطبع.. وما كان يجب أن أتسرع بالعرض، لكن الاستجابة غريبة.. موقف محير لا يدل على أدنى الاهتمام.. ألست لقطة.. عريس به كل المواصفات الجذابة لفتاة بائعة وربما بائسة.

عدت أسألها:

. إيه رأيك يا بنت الناس ؟

قالت بحياد قاطع بطعم الرفض: أنت كبير

. أربعين سنة.

. وأنا ١٨,

. لا أنت واحد وعشرين.

ابتسمت وقالت وهى تضرب صدرى بيدها المبتلة:

. يخرب بيتك، والنبى صح.

فرحت للدعابة التى طلعت علىَّ من وجه زادته الابتسامة جمالاً.

. إيه رأيك؟
. بتشتغل إيه.
. أستاذ جامعة.. دكتور.
. بس أنت متجوز.
. كنت.
. عندك أولاد.
. ولا ريحتهم.

انشقت الأرض وظهر أخوها فجأة، يطلق من عينيه الشرر.

. فيه إيه يا أفندى.

لا أدرى لماذا اضطربت جدا وكادت أوراقى ونظارتى تسقط منى كأنى كنت أسرق.. قلت له وأنا أحاول التماسك:

. إيه مالك يا أخينا.. بسأل عن السمك.

ضحكت البنت وقالت:

. سمك !.. بيقول عايز يتجوزنى.

هممت أن أفرح لقولها حتى ندخل فى الموضوع مباشرة، لولا اشتعال وجهه وبسرعة كانت المطواة فى الجو ومعها عيناى، ثم التقطها واقترب منى.. دس أنفه فى عينى.

. بتكذب من أولها.
. أنا كنت.
. ح نفوتها لك المرة دى.. أبويا عندك.

التقطت أخيراً أنفاسى بعد أن كنت قد أوشكت على الانهيار رُعباً.. سحبت كرسياً وجلست جنب العجوز.. مد لى بوز الشيشة.. رفضت ونقلت له على عجل رغبتى دون لف أو دوران.. وافق.. لم يتكلم فى أى جهاز أو مهر أو فرش وملابس وشبكة.. قال بحدة:

. حسك عينك تزعلها.. ثمر الجنة عندى بالدنيا.

لم أفهم: يعنى إيه ثمر الجنة؟

. ثمر الجنة بنتى..
. اسمها ثمر الجنة ؟! الله

سرحت استطعم الاسم وأدهش لدهاء المصريين الذين يجملون

حـ ياتهم بالأسماء ويتخلصون من الفقر والنكد ببعض الزينة البسيطة.. لكزنى العجوز فى كتفى قائلا:

. لو اشتكت منك يوم مش ح تكفينى عيلتك.. إحنا فاتحين مع السجن أبونيه.

. فى عينيَّه يا عم الحاج.

تزوجنا بعد أسبوعين.. تمرغت فى العسل غير عابئ بالجامعة والأبحاث والترقـ ية وكـ يدمان وقلت بمنتهى الجسارة.. طظ فى أمريكا واللى يتشدد لها.. كنت مشغولا بقاع المجتمع اللذيذ.. جننت بالجسد المشتعل، وعندما أتداعى وتنفك كل مفاصلى أتأمل الوجه الجميل.

أكثر من مرة قلت: عبقرى اللى سماكى ثمر الجنة اسم على مسمى

بعد شهور سألتنى.. بمناسبة تكرار مدحى لها ولاسمها.

قالت: يعنى أنا لى قيمة عندك ؟

قلت: طبعاً.. بس سامحينى لأنى بشخر وأنا نايم.. تصورى مرة سمعت نفسى وأنا بشخر.

قالت فى شبه صفعة: مش مهم الشخير.. المهم الكذب

تجاهلت كلامها لأن الأمر لا يخلو أحياناً من تغيير معلومة أو اثنتين.. مما يزعج البعض، وأرى أن الموضوع لا يستحق.

قلت: سامحينى، لأنى مش فاضى أفسحك.

قالت: مش مهم الفسحة.. المهم المحاصرة والمراقبة.. أنت تسأل عنى الخدامين والبواب والجـ يران، غـ ير اتصالاتك بالتلـ يفون الأرضى والمحمول، غـ ير أسئلة كـ يرة غرضك تمسك تصرفات أو كلام تحسبه علىّ.. أنت شخص شكاك وما عندكش ثقة بنفسك.

أفزعنى الهجوم المتواصل.

قلت من قلبى: غيرة وحب.

قالت: اللى ما يشوفش من الغربال يبقى أعمى.

سألتها: ليه تقولى كده؟

قالت: لإنك بتشك عمَّال على بطال.

بعد ستة أشهر أخذت ذهبها فقط وتركت البيت.. لم أصدق.. زلزلنى ما وعيته بعد وقت. مؤكد غواها أحد.. حبيب أو أخ.. لم أقصر معها لحظة.. لم أغضبها كما طالبنى أبوها.. وفرت لها حـ ياة لا تتوافر لأمـ يرة. المرأة كائن غريب.. مجنون ومعقد متعذر إرضاؤه.. لا.. لن أتركها أبدا سأستعد يدها مهما كلفنى ذلك، وسوف أسكنها فى سجن محاط بالسلاسل والحراس.. هذه الجوهرة الثمينة والنمرة الشرسة لابد من إحاطتها بما يحميها من نفسها ومن اللصوص.

مضيت إلى منزلها وهو مقبرة فى الإمام الشافعى.. سألت أمها عنها.

قالت: فى السوق.. أنصحك ما تروحش.

لم أهتم بالتهديد.. سأجرها حتما إلى بيتها.. لا أقبل أن تقف زوجتى فى السوق لتتلقى النظرات والكلمات الخارجة.

. إنت سبت البيت ليه ؟

لم تلتفت إلىّ، وقالت فى ازدراء:

. بيت.. كل اللى عندك أقل من ثمن شبشبى ده.

تمالكت أعصابى المتوترة المستعدة لكل شئ حتى ارتكاب جريمة أو على الأقل فضـ يحـة.. لم أمنع نظرى أن يهبط إلى الشبشب الممزق والملوث بالوحل.

قلت ببرود مصطنع:

. طب إنت هنا ليه ؟

. أخويا ضرب واحد ودخل السجن

. إمتى ؟

. أول امبارح

. لو سمحت تعالى معايا.

فجأة تألمت من وخز السكين فى بطنى.. كانت قد اختطفتها دون أن أدرى من أين، فقد كانت يدها فارغة.. أكلت أسنانها وهى تقول:

. إيه رأيك؟.. فات وقت الكلام.. إنت قشرة.. عارف يعنى إيه قشرة ؟

كلامها صفعات متلاحقة.. لم تترك لى فرصة لأى كلمة مهذبة.. لمت نفسى بشدة لأنى سمحت لها بإهانتى أمام الناس والسمك.. قررت أن أتركها الآن والعودة مرة أخرى.. لعل وعسى..أنا قشرة !.. يا نهار أسود.. كلمة واحدة مهذبة، لكنها قاتلة وماحقة. قشرة تعنى مجرد شكل لا علاقة له بباطن سيىء وتعنى رجل فالصو.. كله مزيف.

اشتقت إليها فقد كانت بالفطرة تعرف كيف تصنع البهجة وتغرقنى فى السعادة.. ذهبت إليها فتركتنى بين الناس بلا كلمة وأنا مجرد شحاذ يقف بباب السلطانة والجميع يدهش لحالى.. كنت أتسول نظراتها.. قلت لوالدها:

. خذ كل ما أملك وأعد زوجتى إلىَّ.

سحب الأنفاس من الشيشة بمزاج ونفخها لأعلى، ثم قال:

. أهى عندك تفاهم معها.

أحببت السمك ذلك الكائن الوديع بلا ادعاء.. الماهر بلا جبروت.. حاولت أن أعرف أسراره وأهواءه وأمانيه.. سلمت له نفسى كى يهدينى بصبره وتغاضيه عن أدران الوجود .. قررت أن أعوم كما يعوم السمك فى الحوض.. طلبت منها أن تعلمنى.. علمتنى وقضيت شهوراً معها أمام السمك، السمك الذى استحوذ على.. أبيعه لمن يريد وأدله على طرق خدمته ورعايته ليكون بهجة دائمة له.

أذهب إلى الجامعة يومى الثلاثاء والأربعاء والمركز الأمريكى للدراسات مع ك يدمان يوم الخميس، أما ثمر الجنة فأنا معها يومى الجمعة والأحد أخدم السمك وأحبابه، إلى أن رضيت وقبلت العودة إلى البيت، والأيام موزعة كما هى.

وكما علمتنى السمك.. علمتنى الحياة.. وعلمتنى احترامها.

لم أسأل عن الذهب، لكن أباها قال مرة:

. الذهب أخرج أخوها من السجن.

أصبحت أؤمن . على عكس ما كنت أؤمن من قبل.. بأن الحب أهم من الذهب.. وثمر الجنة أهم من الحياة.

الجمعة..
الأنثى ذات العيون المكحلة
بالكبرياء.
والم٨عة الساهرة على
الخلق ما بين الوسادة
والصلاة..
تمسد شعرها الذى حنته
بالطيب والحكمة.

يمامة خضراء بكعب محنى

لست أدرى على وجه الدقة السر فى أنى أحببت اليمام أكثر من الحمام، ربما بسبب صوتها الرخيم، وربما بسبب ندرتها وربما بسبب شعورى إنها مسكينة وهيابة تتجنب الزحام والعنف والصخب.. وربما لأنى فى الوقت ذاته أشعر بأنها تتمتع بدرجة كبيرة من الاعتزاز بالنفس كالهدهد.. لكن اليمامة تعتز بتواضع، وتسمو فى أدب وانزواء، أما الهدهد فلديه إحساس زائد بالأهمية، وانتباه حاد للفارق بينه وبين الكائنات الأخرى ويسمح لنفسه بالتعالى، وأحسب أنه محق.

اليمامة فى الأغلب ترفض النزول إلى الأرض والتسكع تحت أقدام المارة أو ركوب البهائم كما يفعل الحمام، وهى تحرص على تجنب عالم المدن المزعجة.. فمن اليسير أن يتعكر مزاجها، ولها نظرة خاصة فى الأماكن التى يمكن أن تعشش فيها والبيئات التى ترتادها.

تلقيت طعنة وأنا فى نحو الثامنة عندما رأيت بعينى شابا يسقط ببندقيته يمامة من فوق شجرة، وما كان هذا إحساسى عندما اصطاد هو أو غيره العصافير والحمام والبط.. تطور الأمر بشكل صارخ عندما أصر ثرى من أثرياء وكالة البلح على دعوتنا بمناسبة خطبتى لابنته لتناول العشاء فى بيته.

أقام الرجل ولـيمة كبـيرة فوجئت بحجـمـها فى شقـة تحتل دورا كاملا من عمارته، تبلغ مساحتها نحو ثلاثمائة متر، كلها عبارة عن مساحة مفتوحة بلا حوائط، وشعرت كأنى فى ملعب للكرة، يبدو أنه خصصها كمضـيفة بخلاف سكنه فى شقة تعلوها بالمساحة ذاتها.

كنا نحو عشرين فردا من الأسرتين.. طعام وفير بشكل مبالغ فـيه، مـثل الذهب الذى يتـدلى من رقـاب زوجتـيـه وبناته السبع ويلتف أساور وثعابين على أذرعهن بما يصدم العيون وهو يومض متكورا ومتكتلا فى أصابع أبنائه الخمسة، وتصورت أن هنـاك أساور وثعابين وعقارب تلتف حول خصور الزوجات والبنات وأفخاذهن وسيقانهن.

كان فرحا بوجودنا، حاول أن يعبر عن ذلك بكل وسيلة، وعندما قال لوالدى:

- على شرفك يا حاج إبراهيم ذبحنا خمسين زوج يمام.

أسرعت أقول:

- تقصد حمام.

فانبرى فخورا:

- لا يا أستاذ.. الحمام شئ عادى، ويلزم أن نذبح لكم..

لم أنتظر لأسمع بقـية كلامه اللزج.. اندفعت إلى الخارج تاركا كل شئ، وتسببت فى مشكلة، وحرجٍ بالغ للجميع.. لا يهم.

غضب والدى وقاطعنى أسبوعاً لأنه صاحب فكرة الزواج من ابنة هذا الأب القاتل، رغم أن ابنته جميلة وسمينة وطيبة وجاهلة.. غضبت الأسرة كلها بسبب التصرف الأرعن على حد قولهم حتى أخوتى الأصغر.. خامرنى بعد أيام شعور عابر بأنى بالغت وأعطيت التصرف العادى أكبر من حجمه.

منذ أيام حدثنى صديق أنه رأى فى سوق الجمعة يماماً كثيراً وحماماً وعصافير. تحمست لفكرة زيارة السوق لرؤية اليمام والتخفيف عنه بعد مجزرة التاجر السفاح.

أزحت من أجندتى كل انشغالاتى ومضيت إلى هناك.. كان يوما

غائماً وغامضاً.. لكنى أكملت طريقى نحو اليمام الذى كنت أربط بينه وبين فاتن حمامة فى شبابها الوديع الذى تجلى فى صراع فى الوادى وسيدة القصر ونهر الحب وأيامنا الحلوة والباب المفتوح والطريق المسدود وغيرها كثير غمرتنا به تلك اليمامة.. وكان طبيعياً أن أتحدث عنها إذا لزم الأمر باسم فاتن يمامة.. عزمت أن أنتهز الفرصة وأكتب عن ذلك الكائن الرقيق موضوعا للجريدة.

اليوم ومنذ استيقظت فى الصباح أشعر باختناق لا أعرف سببه ناديت السيدة عائشة التى أسكن بجوارها، وأحس دائما عبير وجودها، وألمس بعض نفحات حضورها النبيل علينا وعلى سكان الحى. بركاتك يا ستنا.. تنهدت وغادرت الفراش.. درت فى الشقة فلم أجد أحداً من العائلة.

تذكرت أن أمى وأختى ذهبوا مبكرين لزيارة جدتى فى تلا وأعلنتهم فى المساء بعدم رغبتى فى الذهاب معهم.. اعترضت أمى، لكنها اقتنعت لما أنبأتها بقدوم الدورة الشهرية وغالبا ما تهزم جسمى.. البيت يبدو موحشا وسخيفا.. ربما كان هذا هو السبب فيما أحسه.

دخلت كل موضع علّنى أجد ما يلهينى لأخرج من حالتى.. كان كل شئ بدون الأسرة باردا ومملا، مع أنى تصورت قبل أن يغادروا أن الوحدة متعة.. العادة بقدر ما هى مريحة لأنها تنظم السلوك والحياة، إلا أنها فجأة تصبح عبئا ثقيلا إذا انكسرت لأى سبب.

فنجان القهوة لم يؤثر فى نفس ضجرة وعقل مشوش بالرغبات والحواجز والاختيارات المعوقة.. بركاتك يا ستنا.

رن التليفون.. عرفت صوت المتحدث الذى لا يتعب.. يلح من جديد كى أوافق عليه زوجا وقد بلغ الخمسين ومتزوج ولديه خمسة من الأولاد.. لمجرد أنه غنى يتصور أن بإمكانه أن يشترينى وسوف يسيل لعابى، وهو مثل أبيه محمد جرجس بائع الروبابيكيا الذى ظل يطارد صاحب العمارة التى نقيم فيها حتى اشتراها منه بأكثر من ثمنها ليكون إلى جوار السيدة..

ها هو ابنه يمارس هوايته بلا يأس. لو كان أبى حيا لرده

بكلمات لاذعة مع أول محاولة، ومع الثانية يهشم رأسه بعصاته الغليظة.. كان على أبى أن ينتظر قليلا حتى يخلصنا من أمثال هؤلاء الطامعين فى كل شئ.. يتصور ابن محمد جرجس إننا لقمة سهلة.. المال يعمى صاحبه.

وقفت طويلا أمام المرآة.. أخذت أتزين بدون مناسبة فوجئت أن شكلى يمضى فى عكس اتجاه حالتى النفسية.. داخلنى رضا عن عيونى الواسعة ورموشى الطويلة وخدودى الوردية.. مشطت شعرى.. كان سلسا على غير العادة.. لا يعارض المشط عندما يدفعه فى أى اتجاه.. بدا أطول من كل يوم مع أنه فى الأصل قصير.. قفزت فجأة فكرة الخروج.. وتاقت نفسى أن أرتدى التايير الأخضر الذى اشتريته خصيصا منذ شهر لحضور حفل خطوبة زميلتى، ولم ألبسه لأن العريس تراجع.. أنا واثقة أن أمه هى السبب.

لبست التايير ونزلت إلى الشارع.. تنفست الهواء الطازج بعمق.. بدأت نفحات الست تتخللنى. أنا الآن أفضل قليلا.. سوف أتمشى إلى سوق الجمعة الذى لا يبعد غير محطتى أتوبيس.. أتسلى بالمعروضات والأسعار.

ما أن وصلت إلى سوق الجمعة، حتى وقعت عيناى على فتاة رائعة القوام فى اللبس المحزق كانت تسبقنى بخطوات.. ساقاها بضاوان بضتان.. تايير أخضر زرعى يلف الجسد المشوق ويظهر مفاتنه. جاكت التايير نصف كم. الذراعان يتدليان ككوزين من عسل والشعر الكستنائى يلامس الكتفين، خصلات قليلة منه شقراء.. ردفاها ممتلئان قليلا.. تبدو طراوتهما فى هزات متوافقة.. تومض بغير بريق.. قدماها فى صندل مكون من شرائط جلدية صفراء وخضراء، يبدو من الخلف كعباها البرتقاليان بالحناء.. لوحة آسرة متحركة ربما تلهينى حتى أعثر على اليمام.. المشهد كله يتميز بالإيقاع الزمانى والمكانى.. الجمالى والحسى.. التاريخ متواطئ مع الجغرافيا لسلب العالم راحته واستقراره.

هذه هى الصورة من الخلف، فماذا عن الصورة من الأمام ؟

تجاربى السابقة تقفز إلى رأسى لتنبهنى إلى تقبل الصدمة، فالوجه سيكون وجه عنزة أو خنزير برى، وفى أحسن الحالات مس بيجى سيدة عرائس والت ديزنى. سبقتها بعشرين خطوة ثم عدت لأكون فى مواجهتها حسما للأمر، فلا أحتمل الجمال الخلفى بقبح أمامى.. العدالة والرحمة تقضيان. دون تدخل فى عمل الله. أن تتماثل الصفات.

الغريب أنى وجدت فى المواجهة لوحة من الجمال والجاذبية رغم أن الفم واسع قليلا والأنف طويل قليلا والذقن مدببة، لكن الشفاه دسمة تحمل دعوة ملحة للقبل.. العينان نصف الوجه تؤطرهما رموش طويلة.. بدا تصميم التايير أقل من عادى والقماش رخيص.. لكن البنت فاتنة، والفتنة أشد من القتل.

أخذت موقعى فى الخلف مرغما، لأن المقدمة لا تسمح إلا بالعبور فقط قادما من الاتجاه المعاكس، وإذا رغبت فى استمرار مواجهتها فعلىَّ أن أسير بظهرى فى يوم الحشر هذا، والمهمة مستحيلة، وعلى فرض حدوثها لعدة أمتار، فسوف أخرج من السوق إلى المستشفى بعد علقة تاريخية يشارك فيها الجميع وإذا تعرف علىَّ أحد من القراء أو الزملاء فسوف تنشرها الصحف.

لا تروقنى حركات هذا الشاب. فهمته من اللحظة الأولى.. إن قل حياءه سيكون نهاره أسود من قرن الخروب.. أقنعت نفسى بعدم التعجل لكنى أعرف أمثاله.. الصندل جاهز فى رجلى. توقفت أمام بائع ملابس داخلية.. وقف.. يبدو أن اللحظة المناسبة قاربت لأجعله يفيق.. مددت يدى وأمسكت بكلوت بمبى، دائرة على حروفه كلفة حمراء.. فحصت قماشه بين السبابة والإبهام.. لاحظت أنه ابتعد.. لم تعجبنى القماشة اللامعة. كله بوليستر. أمسكت كلوت أخر عبارة عن شبكة مع ثلاث وردات حمراء.. واحدة فى كل جانب وفى أسفله وردة كبيرة.. جديد ولكنه لم يعجبنى. سألت البائع عن كلوتات قطن.. هز رأسه يمينا ويسارا وبدا كالمخدر.. لا يكاد يرى من شقوق عينيه. تحركت فى اتجاه

الأحزمة الرجالى والحريمى عند البائع التالى.. كان من يتبعنى على بعد ثلاث عربات.. تجاهلته.

ابتعدت عن العربة التى كانت تبيع كلوتات النساء.. سبقتها، حـ ياء من ناحية، ولكى أتمكن من مطالعة الوجه والبشرة الملساء.. الرميل الأخضر خفـ يف جدا فوق الرموش.. إذا رفعت ستائر رموشها بدت عـ يونها الجميلة، أهكذا تفعل العـ يون الجميلة لتحيل عادية الملامح إلى ساحرة.. إن العـ يون التى فى طرفها حور.. قتلننا ثم لم يحيين قتلانا.

أيها الشاعر مع احترامى لحضرتك أنت لم تر عيون يمامتى.. وقفت قليلا عند بائع الأحزمة.. حومت نظراتها على بضاعته فى لحظة وانتقلت إلى بائع جوارب النساء وملابسهن، وتحولت على عجل بعد لمحة عابرة إلى الملاءات ومفارش الأسرة.. كانت تحمل على ساعدها الأيسر حقيبة من الجلد البنى المحروق، تلتف حولها شرائط صفراء. اجتذبنى الطاووس الذى كان يستقر فوق فردة ثديها الأيسر.. لم يمنع المنديل الأصفر المعلق برقبتها والمتجمع فى فـ يونكا على جنب مع تمتع الصدر بحريته.. التايير مفتوح من أعلى قليلا بحيث يسمح للثديين أن يتنفسا ويسمح لنظرات العابرين أن تطل على الهضاب المرمرية ذات اللون الأبيض المحمر الذى يستطيع أن يكوى وأن يلدغ، وقد يحدث للبعض دواراً مؤقتا.. لمحتنى فكشرت.

جذبتنى أطقم الصينى للسفرة والشاى والكاكاو.. سألت عن الأسعار.. واضح الفارق بين أسعار السوق وأسعار وسط البلد، أرخص بكثـ ير أسعار السوق حتى من العتبة وشارع عبد العزيز، وأذواق جميلة وخامات ممتازة يمكن مهرية حقـ يقى حسب أقوالهم.. تفحصت جـ يدا أطقم المعالق الصـ ينى والفرنسى والبلجيكى.. سوف أدعو أمى لمشاهدة كل هذه المعروضات.. غريبة.. لقد كنت هنا منذ عدة أشهر ولم يكن السوق بمثل هذا الزحام.. المجنون لا يتركنى لحظة.. لا داعى للشدة معه، لكن لابد من زجره بالنظرات لأن المسألة زادت عن حدها.

وقفت عند عربة التماثيل البرونز والسبح والعقود الكهرمان والمباخر والصوانى النحاس. سألت عن الأسعار. فكرت أشترى هدية لرئيستى فى العمل. لعلها تزيد حوافزى. خمسون جنيها عمياء ماذا تفعل مع الغلاء؟.. اشتريت لها صينية نحاس منقوشة بالأرابيسك شغل خان الخليلى.. أين ذهب بائع لعب الأطفال.. ها هو اشتريت دبا.. الولد ما زال يحاصرنى بعينيه.. المسألة باخت.

وقفت أمام بائع السكاكين.. كانت مرصوصة بشكل مرعب كل أحجام السكاكين على اختلاف أصنافها وخاماتها، فى المنتصف عدة سواطير.. لماذا تتأملها؟.. التفتت إلىَّ.. وصلتنى الرسالة. لكنى ابتسمت.. همَّت بالتحرك.. قلت أكبح متابعتها قليلاً حتى لا تتبرم وتسئ الظن.. ركزت فى السكاكين.. فى لحظة عابرة، لاحظت أن السواطير المسنونة تحلم ربما للمرة العاشرة برقبة بقرة سمينة، تتمشى على لحمها المكتنز وتغوص، وعندما ارتطمت بعظمة ارتفعت إلى أعلى وهبطت بعزم سلاحها ففصلت تماما وبلا رجعة الرأس عن البدن.

ارتعدت من حلم السواطير وتفكيرى العبثى.. تحركت دون وعى وفوجئت بأنى أوشك على الالتصاق بها.. هبت فىَّ بغضب مكتوم:

.وبعدها معك.. صبرى نفد

كان فى صوتها بحة خشنة لكنها أسرتنى وتمنيت أن أستمع إليها باستمرار.. لست أدرى لماذا لم أنزعج من غضبتها؟.. أحسست أنها تحافظ على الشكل فقط، وأنها فى الحقيقة ليست غاضبة.

عند التماثيل حيث كانت نفرتيتى وحتشبسوت ورمسيس واخناتون وقفت تتأمل فينوس وتمثالها البرونزى.. ما زالت كما كانت منذ آلاف السنين تقف مقطوعة الذراعين. عباءتها توشك أن تنزلق عن الجسد المحموم بوهج الشهوة الصاهل بشوق الانتظار.. هل ثمة علاقة بين ذراعيها الغائبين وحلمها بدفء التحقق الإنسانى.. أحسبها تجاوزت محنتها التى فقدت معها الذراعين، ومازالت تشعر وتثق أنها لم تفقد شيئا، وملكاتها ومواهبها لازالت متمتعة بالطاقة الساحرة.. عادت تصب علىَّ

نظراتها الساخطة، وتقـ يسنى من أعلى إلى أسفل فى احتقار مشكوك فى جديته.

اجتذبنى المعروض من الملابس والأحذية.. سألت عن الأسعار. مفاجأة بدون شك.. اشتريت بلوزة بناتى لأختى جي هان وقميـ صا مشجرا لأخى الصغـ ير أسامة وبوتا أسود.. الماكر أصبح فى مواجهتى تماما.. وقف يفحص بريع عين وقليل من الاهتمام ربطات العنق والجوارب والمناديل.. يحسب علىَّ كل نظرة. أشعرنى بالارتباك.. الغريب إنه يبدو مهذباً ولا يرتكب ما لا يليق.. لا يلعب بحواجبه ولا يغمز بعيـ نيه، لا يعطى مواعيد بيديه ولا يـ قترب أكثر من اللازم.. لا يحدق فى جسمى بشهوانية.. عندى إحساس إنه لا يتسلى. أعرف ذلك من عـ يون الشباب أكثر من أى مصدر آخر.. عيناه غير فاجرتين، والأغرب أنى لاحظت فيهما مع الحـ ياء حنانا وطيبة، لكنه يربكنى ويشتت فكرى. انشغل لحظة بإشعال سـ يجارة.. قمـ يصه البنى جميل. وشعره الأسود الناعم يـ عجبنى.. أسنانه بيضاء ناصعة ومرصوصة مثل حبات الذرة فى الكوز.. لا يزيد سنه عن ست وعشرين سنة.. لم أعرف حكايته حتى الآن وماذا يريد منى؟.. هذه المطاردة ليست مجانية.. يكفى ما اشتريـته، سأكمل حتى بائعى أسماك الزينة وأرتد عائدة، قد تحدث مشاكل لست مستعدة لها.

اشتريت ولاعة مطلية بالذهب وربطتى عنق وأربعة جوارب، أما هى فقد اشترت قصافة أظافر وبنس للشعر وتوك بلاستيك ملونة مرصوص عليها أرانب صغـ يرة وجراء وقلوب بيضاء مطعونة بسهام حمراء، واشترت بوتا أسود يغطى حتى ما تحت الركبة، واشترت كوفية كاروهات أخضر فى أصفر كى تتناسب مع فستانها.

لمحتنى فابتسمت.. أخـ يرا ابتسمت وتخلصت من الاحتقار والنظرات الغاضبة والعبوس.

فجأة وبدون أى مقدمات، ورغم الشمس المشرقة التى تفرش الدفء على الجميع. توترت السماء وتقلبت أمعاؤها وارتجت ثم انهمر المطر.

. عيب عليكى يا مطرة والشمس طالعة.

هكذا كنا نقـول ونحن أطفـال عن مـثل هذه الحـالـة الدرامـ يـة اللذيذة..

فى ثوان كـان كل شئ فـى السـوق مـا عـدا الـبـشـر طبـعـا مـغطى بمفارش عـريضة من البلاستيك السميك الشفاف، وخـرجت على عـجل بعض الشمـاسى من أغمـادها فى آلـ ية لافتـة. انـطلق الزبائن يركضون فى كل اتجاه. ارتبكت الأقدام وارتطمت الأجساد وصرخت النساء صرخات صغ يرة مفزعة ومصدومة، لكن الباعة سرعان ما ضـحكوا وتبـادلوا الـنكات والسـجـائر، وعـلا وشـيش بـوابيـر الجـاز وهمس النار الزرقاء لـلبوتاجـازات الصغـ يرة التى يسمونها بومبة وضعت سخانات الشاى واليـنسون والقرفة.

فجأة أحـسـست بلسعـة برد كأن الكهـرباء انقطعت عن الـدفـايـة، وتساقطت بعض قطرات المطر.. اضطربت.. هل ستمطر كثـ يرا ؟..

مستحيل.. رفعت رأسى إلى السماء.. لاحظت أن السماء التى فوقنا فقط يغطيها سحاب أسود ثقيل.. وعن بعد تبدو السماء صافية، والشـمـس سـاطعـة ونور النهـار يـغـمـر الدنـ يـا.. سـتكون ورطة إذا أمطرت بكثـافـة.. ها هـى بالفـعل تمطر بشـدة.. أصـابـتنى حـالة مـفاجئة مـن الغضب بسبب جنون الطبيـ عـة.. كيف أعود الآن بهذه الأحـمـال والسـ يارات بعـ يدة والأرض سـتـغـرق وتمتلئ بالأوحـال.. فوجئت بالشاب الهيمان يدنو منى ويقول فى لهفة:

. ممكن أشيل معاكى ؟

أحتـاج فعلا الآن من يحمل عنى هذه المشتريات وأركض سـريعاً عائدة. الموقف سيسوء أكثـر.. أود أن أسبه لتطاوله.. كشرت فقط فى وجهه.. كان جريئا ولكنى كنت فى أمس الحاجة إلى العون.. قلت له فى برود:

. مفيش داعى.. ما أنت شايل.

قال برقة: . أرجوكِ

مددت يدى بكيسين كبيرين.. عندئذ قال:

. يالا نجرى لغاية العربية.

تسمرت فى الأرض واضعة كيسا فوق رأسى.. قال:

. مفيش فرصة.. أرجوكِ

مددت يدى إليها وحملت عنها أكثر ما معها وهى مستسلمة رغم العناد والمكابرة.. عيناها فى عينى كأنها تختبر درجة صدقى ومدى إمكانية الوثوق بى.. قلبى يرقص بين ضلوعى فرحاً بالطب يعة التى تؤازرنى.. لم يذهب هباء حبى للمطر منذ الطفولة.. الناس عنا مشغولة.. الدنيا حط عليها جمال غريب ونادر.. تقدمتها فتبعتنى حتى أول السوق.. كانت سيارتى الصغيرة هناك مغسولة ومتأهبة لى وللضيفة الجميلة.

المطر الذى بدأ شرسا عازما على إغراق الأرض بدأ يخف ويصفى باقى الأوعية فى أناة.. وعندما دخلنا السيارة كان تقريبا قد توقف بعد أن قام بدوره فى مكافأتى على صبرى وتمام رحلتى التى نفذتها بإخلاص فى مرافقة يمامتى الخضراء ذات الكعب المحنى.. والتى تقبع فى وداعة رائعة فى سيارتى المتواضعة.

أنا أكثر منه جنوناً. بل أنا المجنونة التى استسلمت له وقد نزع بكل بساطة أسلحتى، وحمل عنى بعض ما أحمل وسبقنى إلى سيارته. الأغرب أنى أسرعت فى أعقابه كأنه أخى أو زوجى ونسيت أنه شخص غريب. لا. لم أكن أجرى لأنه أخذ عنى الهدايا، لكنى كنت أهرب من المطر والورطة والحيرة. كنت مضطربة.. فماذا لو رآنى أحد أقاربى وأنا مجرورة إلى هذا الشاب الغريب؟.. ماذا يمكن أن يقول؟.. عزمت ألا أدخل السيارة.. سأرفض بشدة. أى سيارة أجرة يمكن أن تقلنى إلى البيت. نعم. فتح لى الباب وقال: تفضلى.. سيارة بيضاء. كانت تبتسم وتمد لى يديها، والباب إلى نهايته مفتوح وبدا الكرسى مريحاً ودافئاً.. طفلة صغيرة تتدلى من المرآة الأمامية.

بمنتهى الرقة قال: . أرجوكِ

فكك كل أعصابى وأسال إرادتى.. قضى تماماً على قرارى بعدم الركوب معه.. يارب ما كل هذا السحر فى كلمة: أرجوكِ!! وما كل هذا الحنان فى الطريقة التى نطق بها الحروف.. هذه الدنيا التى

لا تساوى عند الله جناح بعوضة، تساوى أغلى كنوز الأرض إذا كان رجالها بهذه الرقة.

كانت كلمة أرجوكِ وهى تتهادى وتنحنى وتتلوى خارجة من فمه كأنها معطف من الفرو أرتديه فى عز الشتاء، وكانت سريرا من الحرير أتمرغ عليه فى عز الصيف.

أغمضت عينى لحظات حتى أختبئ من نفسى اللوامة.. قررت أن أصبر حتى ألملم شتاتى المبعثر فى كل اتجاه، ثم أذهب بمنتهى الحسم.

كنت قد عزمت أن أتحدث إليها قليلا ونحن جالسان فى سيارة متوقفة لكى أعرفها بنفسى وأسألها عن نفسها، لكنى خشيت أن تكتشف انقشاع الغمام وتوقف المطر، فأدرت السيارة وانطلقت، ثم أخذت نفساً عميقاً لأفرغ روحى وأمهدها لمرحلة تالية.. أخذت تسوى شعرها وتنفض حبات المطر البللورية عن رأسها وصدرها.

ناولتها جاكت صيفيا كان على الكنبه الخلفية، طلبت منها أن ترتديه.. رفضت.. قلت لها: أرجوكِ

نظرت إلىَّ بدهشة ورضا.. ثم مدت يدها فى تردد وأخذت الجاكت.. ساعدتها على ارتدائه.. سألتها بعد لحظات:

- إنت دفيانة؟.

هزت رأسها وتنهدت وهى لا تزال منكمشة.. مضينا نتبادل الحديث الذى يزرع حديقة كاملة بالسعادة، وسطحا عامرا باليمام.. ما أجمل تلك اليمامة التى أهدتها إلىَّ العناية الإلهية!.

عندما حط فوق كتفى جاكت خفيفا ذا لون غريب نسبيا إذ صممه فنان مجنون ألقى بفرشاته لطشات صفراء بلا ملامح محددة على أرضية بنية، قال لى: إنت دفيانة.

لم أجد الكلمات.. فى الحقيقة وجدتها، لكننى لم أستطع النطق بها. اختفى صوتى وتعثرت حنجرتى وشعرت بالظمأ. هززت رأسى شاردة.. كان الماكر قد قضى علىَّ.. لكنى تذكرت السيدة عائشة.. جارتى الملهمة.. قلت فى أعماقى وأنا أشعر بالنشوة: بركاتك يا ستنا.

انتظرناك بلهفة أيتها الأنثى
الخـــارجـــة من الغــابة فى ثوب
سماوى أبيض
تتـــدلى منه عناقـيــد الفل
ومـواعـيـد النمـاء والجـمـال
واليقين.
فى يديك البـخور الذى يطرد
اللعنـات، وقد شكَّلْتـهِ من شـبق
الجـبـال العــذراء، وتمتـمـات
الضمائر العاشقة لأقمار العفة.

زنجبارى

لم تندمل جروحه، وكيف تندمل وهى عميقة ودماؤها مازالت ساخنة رغم مرور الشهور؟!.. **هل تندمل بمجرد إلقاء القبض على مرتكبى الجريمة؟.**

كانت لها صورة كبيرة معه وهما يقفان إلى جانب المسلة المصرية ووراءهما البيت الأبيض فى واشنطن، معلقة فى البهو الكبير فوق بايوه يعلوه شمعدانان نحاسيان وساعة.. هدية سناء إليه فى عيد ميلاده.

بعد الحادث المفجع أخرج صورا كثيرة لها وكبرها وغطى بها الجدران.. تملأ روحه وقلبه وعقله، ويجب أن تملأ الفضاء والهواء وتتجلى أمام عينيه فى كل مشهد، يجب أن تلون ببسمتها المشرقة كل الأركان وتشغل بحضورها النسيمى كل المسافات.

يتساءل صباحا ومساء.. فى منزله وفى المكتب.. كيف يعوض غيابها؟.. كيف يستعيدها؟ بل كيف يحييها من جديد؟.. يقول: لست بحاجة إلى أن أتذكر بأن من ذهب لا يعود، لكنها يجب أن تعود وتبقى طوال حياتى على الأقل لتؤنسنى بروحها الأثيرية وشعورها الملائكى.

كل أحاديثه يوجهها إلى نفسه وأحيانا إلى الله، وأكثرها إلى وداد.. سلحفاة اشتراها لها من الهند. عندما داعبتها ولمست درقتها

بأناملها الرقيقة لم يفكر لحظة، اشتراها من الهندى الضئيل الذى كان يقعد أمام قفة بها عدد كبير من السلاحف وفوقها كلب صغير.. تهلل وجهها.. حملتها إلى فمها وقبلت خطمها الصغير.. توجست السلحفاة وتراجع الرأس إلى الكهف.. حاولت سحب يديها وقدميها، لكنها عادت فأخرجت رأسها وقبلت سناء..

سألته: لماذا يضع الرجل الكلب مع السلاحف هل ستهرب؟ وتضحك بصفاء غريب.. وقف يحدق فى صورتها وهى أمام جامع أيا صوفيا فى اسطنبول، ثم تحول إلى صورتها أمام كنيسة نوتردام بباريس قبل أن يذهبا إلى متحف اللوفر مشيا على الأقدام.. انتقل إلى صورتها وهى فى ميدان سان مارك بفينيسيا.. سالت دموعه، ويحدث هذا كثيرا.. كان الحمام كله تقريبا قد اتجه نحوها وإحدى السيدات فى الصورة تحدث جارتها عن الحمام الذى تجمع حول سناء دون الآخرين وطلع على كتفيها ورأسها، وتوزع على يديها وحاول تسلق فستانها الموف.

تذكر كيف رعت والدته إبان مرضها الأخير، وأصرت على أن تطعمها وتسقيها بنفسها وتسندها لتمشى بدلا عن الممرضة، مؤكدة أن المشى له فوائد لا تحصى حتى لمن لا يقدر عليه، واختارت لها عددا من اسطوانات الموسيقى العالمية والأغانى المصرية الشجية.. كانت تقول:

- الحياة تهاجم بضراوة وعلينا أن نقاومها بالموسيقى والفنون.

المرور على صورها، برنامجه اليومى الذى يشفيه بعذاب التذكر ولو مؤقتا.. يرفض أى محاولة لمقارنة سناء بإنسانة أخرى حتى أمه.. مقارنة بالقطع ظالمة للآخرين.. المقارنة لا تكون إلا بين أنداد أو نظائر.

لأن الله لم يمن عليهما بالإنجاب أسست جمعية لرعاية أطفال الشوارع والأيتام، واجتذبت إليها الفنانين ورجال الأعمال وصديقاتها زوجات السفراء المصريين والعرب والأجانب.. مئات الصور تحتفظ بها فى دولابها مع هؤلاء الأطفال.

عاد فجأة من مدريد وعلم إنها بالجمعية فقرر أن يزورها..

طلب من سكرتيرتها ألا تخبرها بحضوره. مضى إليها حيث كانت تسرح شعر طفلة وتعمل لها الضفائر كما طلبت، ثم تحولت إلى طفل آخر لتساعده على إعادة ارتداء قميصه الذى تبادلت أزراره مواقعها.. اكتشفت وجوده فحيته وحياها.. ابتسمت وهى تقول:

. سأفرغ لك حالا بعد توزيع وجبة الإفطار.

متعجبا رآها وهى تعلمهم الطريقة الصحيحة لتناول الطعام وتشرح لبعضهم كيف يمسك الملعقة والشوكة، وأهمية مضغ الطعام، وأكدت على ضرورة البدء باسم الله والختام بحمد الله وشكره.

جلس على الكرسى الهزاز فى مكتبه.. تعود أن يقرأ عليه، ويفكر فيها وهو مستسلم لهزات الكرسى البسيطة التى تذكره بأول مرة تعلم فيها قراءة القرآن فى كتاب الشيخ قطب فى مدينة بسيون. كان الشيخ يهتز عند القراءة فقلده متصورا أن القراءة لا تصلح بدون الهز، ولما فهم بعد ذلك ألاّ رابط بينهما كانت قد أصبحت شبه عادة، ليس مع القراءة ولكن مع الكرسى، حيث تحقق له متعة الاهتزاز الذى تسترخى معه الأعصاب.

مضى يفكر فيها حتى تمتمت دموعه فشعر بالراحة عندما توازنت بأعماقه حالة الحزن مع حالة الرضا.. تهبط السماء إلى روحه وتربت عليها وتهمس لها بضرورة قبول مشيئة الرب التى نسجت خريطة الأعمار على نحو يتعذر على عقول البشر إدراكه، وقد خلق الله الإيمان لتجاوز المسافة بين البشرى والإلهى.

فى أعمق أعماقه يردد دائما:

. اللهم لا اعتراض.. لكن ليس كل فرد يستحق أن يغادر أحبابه وأن يحرموا منه، وأنت من خلقت بشرا ملائكة، كانوا هم القادرين على أن يجعلوا الحياة جديرة بأن نحياها.

تكررت تلك المشاهد كما تتكرر الأيام أحيانا حتى أذعن للقضاء، وإن لم يستطع كبح نفسه عن صب فادح اللعنات على الذين اختطفوا السعادة من حياته، ولو اختطفوا حياته كان أفضل من تركه كخرقة ممزقة ومهانة بالت عليها كل الحيوانات وعاشت فى

العراء أتعس الليالى.

بعد أن غابا عن القاهرة ستة أشهر كاملة فى كوالا لمبور عادا فى إحدى الليالى بشكل فجائى وبلا سابق إعداد. طلبته أخته فى أمر عاجل ولم تفلح التليفونات فى علاج الموقف المتصدع.. كان الخلاف شديدا بينها وبين زوجها ولم يبق إلا الاتفاق على شكل النهاية.. ترك سناء وأسرع إليهما يحاول إطفاء النيران المندلعة بضراوة بسبب اكتشافها زواجه من أخرى.

فى نحو الثانية عشرة اتصلت سناء بزوجها لتطمئن. تحدثت إلى وردة أخته وزوجها فى محاولة للتقريب واعتذرت لما تعانيه من إجهاد شديد وبوادر أنفلونزا اضطرت معها لابتلاع كم من المضادات الحيوية. أسرًّ إليها زوجها بأن المصيبة مضاعفة لأن سمير الذى سعى لتعيينه بوزارة الخارجية ضرب المحظورات وتجاوز الخطوط الحمراء فهو دائم السهر مع أصدقائه وسكير.

تناولت ملعقة عسل نحل وأطفأت الأنوار ودخلت الفراش وسرعان ما ابتلعها النوم الذى لبى دعوة الإجهاد والمرض والسفر الطويل والمضادات الحيوية.

فى الواحدة تقريبا دخل ثلاثة لصوص الفيلا مرتدين الأقنعة. مضوا ينقلون إلى سيارتهم نصف النقل مطفأة الأنوار كل ما غلا ثمنه وخف وزنه حتى امتلأت السيارة، وانتقلوا إلى حجرة النوم حيث توقعوا وجود المجوهرات وسرعان ما عثروا عليها، ولم يتمكنوا من فتح الخزانة أو حملها فاكتفوا بما جمعوه، لكنهم فوجئوا بمن يهتف بصوت متحشرج:

. سناء.. سناء.

فى ركن من البهو الصغير بين الحمام وحجرة النوم كان الببغاء ينادى صاحبته، وقد أدرك الخطر بعد أن داهمته غفوة. مضى يصرخ ويرتطم بشدة فى جدران قفصه حتى اندفع إليه أحد اللصوص فحمل القفص وأسرع إلى العربة عله يسكت، لكنه واصل صراخه إلى أن غادر الفيلا.

كان اللص الثالث بالحمام قد سمع حركة بغرفة النوم فأطل

برأسه ورأى امرأة فى ثوب شفاف يخدرها النعاس، تسأل وهى لا تكاد تصلب طولها.

. هل عدت يا مراد؟

أسرع اللص بضربها بتمثال فينوس ضربة ثقيلة على رأسها واندفع خارجا ليلحق بالسيارة التى انطلقت على عجل تشق طريقها فى ظلام المنطقة الهادئة.

لم تمر دقائق حتى وصل مراد.. راعه ما وقعت عليه عيناه.. كل الغالى ذهب. اللوحات العالمية التى زينت الجدران.. التحف الثمينة.. الفيلا تبدو كالدجاجة المخلية.. جدران وأثاث بارد وعندما لمح جسد سناء على الأرض وهزها أدرك أن الخراب اكتمل.. جلس على الأرض من هول الذهول. كانت أمام عينيه جثة هامدة كقطة دهستها سيارة نقل. الجسم طرى ودافئ.. ارتجف. فقد القدرة على التصرف. لم يعثر على أى أثر للحياة فى الجسد المسجى بإهمال. رأسه على وشك الانفجار. أحس بالتداعى. تماسك أخيرا واستدعى الخفير العجوز، واستسلم لسلسلة الاتصالات والدهشات وحمى الفجيعة.

قبل أن يمر شهر كانت الشرطة قد قبضت على اللصوص القتلة عن طريق باعة الذهب ببنى سويف.

توقف تقريباً عن الكلام. انتهى الكلام لما غادرت الدنيا سناء.. توقف تقريبا عن الطعام.. ليس لأى طعام مذاق مهما كان شهيا.. المذاق الحلو اللذيذ مصدره سناء.. النزهات والتصوير لمن؟.. الهدايا الجميلة لمن؟.. الحب والفرح والحنان لمن؟.. بل لمن العمل والمناصب والسفر؟ وهذه الفيلا لمن؟.. وفيلا الإسكندرية وأرض البدرشين.. لمن إلا لها.. لابد أن يبقى كل شئ لها حتى بعد الغياب الأبدى.

جاءه الخفير يوما يقول:

. لقد رأيت كثيرا من تحف الفيلا المسروقة معروضة فى سوق الجمعة.. كنت وأخى بالأمس هناك ليشترى لابنته ما يلزم جهازها.. فرأيتها.

أصغى مراد وعلق بغير اكتراث:

. مثلها كثير فى كل مكان

كاد الخفير يقسم، لكنه بكل حماس قال:

. لا يا باشا.. الفيل الذى يركبه الطفل والقرد ليس فى كل مكان.. النافورة وسمكها المرمر.. سامحنى يا باشا.. أنا لا أفهم فى هذه التحف، لكنى متأكد.

. شكرا..

قام فتمشى فى الحديقة الفسيحة ليبعد عن ذهنه كلام الرجل الطيب. صحيح أنه يود لو عادت الفيلا كما كانت، لكنه يشك فى أن هذه التحف معروضة فى الأسواق، كما أنه لا يعرف ما هذا السوق الذى حدثه عنه.. ثم يعود ليتبع منطقاً آخر يقضى بأن تكون الفيلا مجرد جدران صماء.. مكان أجرد لا أثر فيه لأى جمال أو تسلية أو سلوان. يجب أن يكون الإهمال والخواء حالها بعد سناء.

فى ركن من الحديقة، كان الزير قائما فى موضعه يشكو الظمأ، وإلى جواره صينية القلل التى كانت تتأكد من امتلائها بالماء المكلل بالورد والمستكة أو يزينها غصن صغير من نعناع أو ريحان، خطاً بضع خطوات حتى الفرن البلدى الذى كانت زوجة الخفير تخبز فيه الفطائر والبتاو، وتسوى فيه أبرمة الأرز المعمر والبطاطس باللحم الضانى وتشوى البطاطا وأكواز الذرة.. لم تكن سناء تستغنى عن الجو الريفى الحميم، وهى صاحبة فكرة إحضار نورج من البلد، وها هو يقبع فى الركن الغربى منعزلا تحت خميلة عنب ظليلة وحوله بضعة كراسى من خشب الشجر دون تهذيب. لمس مراد كل شئ وحدّق فيه، وسأله عن سناء حتى انهمر وراء الأسئلة نهر الدموع..

قرر أن يقوم بالمغامرة.. لبس بدلة بسيطة دون رابطة عنق ونظارة شمسية سميكة، مضى مع السائق والخفير إلى السوق.. صدمه مشهد الساحات المفتوحة، لا توجد محلات أو مبان أو شوارع وأرصفة وعلامات إرشادية وجراج للسيارات.. كان كل شئ

فوق كل شئ وعلى الأرض وتحت الأعين وفى متناول الأيدى. انزعج.. كاد يرجع من حيث جاء لكنه شعر بقوة تجذبه ليتأكد من أن هذا المكان العجيب يمكن أن يجد فيه تحفه التى يعتز بها ويفرح بها بيته، وقد جمعها من معظم دول العالم، ولم يبخل عليها مهما بلغ ثمنها.

فوجئ بالجماهير الغفيرة، ولم يتحمل فكرة المشى وسط العربات المتلاصقة والزحام الكثيف وكثير من البسطاء والفقراء وربما الجوعى واللصوص والدهماء.. الأبدان تحتك وتتخبط بقصد وبغير قصد.

كانت المفاجأة الأولى مزلزلة، فقد عثر عند بائع تماثيل فرعونية، حجر ورخام وعملات ورقية ومعدنية على بعض النياشين والأوسمة الخاصة به وقد نال أربعة منها فى مصر وثمانية فى الخارج، ووجد سيفاً أهداه إليه الملك فيصل لدى بائع السكاكين والمدى والخناجر، ووجد بروازا كبيرا بداخله آية قرآنية محفورة على الخشب ومطعمة بالصدف ورقائق الفضة، كان قد أهداها إليه فنان تركى فى أنقرة لا يمكن نسيانه بعد أن ساعده فى إعادة زوجته المصرية إليه.

عثر على علبة سجائره الفضية المنقوش عليها اسمه، وكانت هدية من السيدة مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا ردا على هديته إليها.. أزعجته كثيرا النداءات العالية والصادمة من الباعة.

- الحقوا.. البضاعة دى مهرية ونبيعها بتراب الفلوس.

- الحقوا البضاعة المهرية.. الحقوا الغالى بتراب الفلوس.

- بسبعة ونص.. صاحب البضاعة اتجنن.. قالنا بيعوا بسبعة ونص.. الحق بسبعة ونص.. اتجنن خلاص اتجنن.. سبعة ونص.

لم يتصور أن يكون هناك مطرب شعبى يحمل الدف وينقر عليه منشدا المواويل ومشيدا بالبضائع التى يبيعها صاحب الشادر.

حاول أن ينتزع من شخصيته تاريخه ومنصبه وعائلته ومركزه

الاجتماعى وحساسيته تجاه كل ما هو شعبى.. عليه أن يمضى بحثاً عن ثروته وأن ينهى المهمة بأقل خسائر ممكنة.. لم يستطع أن يمنع نفسه من تصور إمكانية تعلق بعض البراغيث والقمل فى ملابسه، ليس مستبعدا لأن هذه الحشرات لا تكف عن الطيران والقفز وهى بالتأكيد ذكية.. سوف تشم رائحة عطره الفرنسى، بل ستشم رائحة الصابون الأسبانى الذى لا يستعمل غيره.. يجب أن يتكيف لمدة ساعة تظل ذكراها محفورة فى تاريخه حتى بعد أن يموت.. الخفير الذى كان يشترى ما يأمره به سعادة السفير ويحمله إلى السيارة ويعود مسرعا، أشار له على الفيل الذى يركبه الطفل والقرد وكذلك النافورة المرمرية.. دفع المطلوب وحملها إلى السيارة، وفى غيابه عثر مراد على علبة شيكولاته مطلية بماء الذهب أهدتها إليه بناظير بوتو عندما كان سفيرا فى باكستان وكان ضيفا عليها فى بيتها الذى أنشأته على جبل خارج إسلام أباد.

انتهت المفاجآت بعثوره على طقم الشمعدان الخاص به كاملا مع الساعة، وكان قد ألغى فكرة شرائه فهو مجرد شبيه مكرر، يوجد لدى كل الناس ولم تعد له مكانة مرموقة كما كان، لكنه ألقى نظرة عابرة عليه من الخلف إرضاء للفضول فعثر على حرفى ن. غ .. سناء ومراد فأشار إلى الخفير كى يشتريه، وسبقه محاولا الفرار من المكان الذى لا يذكر إنه رأى مثله، مع أنه كان وسناء يخوضان فى الكواليس والأحياء الشعبية فى البلاد التى عمل بها أو زارها معها سائحين.

تذكر أن سناء كانت تحب الببغاوات. سأل عن ركنها. قيل له إنها مع العصافير.. متثاقلا مضى إليها وهو يشعر أنه يسد خانة.. وجد أنواعا عديدة من العصافير.. الكوكتيل الأصفر بعرف للخلف، والكوكتيل الرمادى والفيشر والاسترالى وأنواعاً أخرى كثيرة ألقت فى روعه محبتها، منذ سنوات كانت سناء قد اقتنتها، لكنها صدمت بموت الكثير منها فتوقفت عن حبها وتدريجيا نسيتها.

حاول الباعة إغراءه بشرائها بسبب تأثيرها فى البيت والونس الذى تشيعه ولجمالها والتسلى بالنظر إليها.. ومنحهم جميعا أذنا غير واعية ولا مبالية، وسأل من جديد عن الببغاوات، قيل له من النادر بيعها فى السوق لأنها تحتاج إلى خبرة خاصة، وزبونها فى العادة لا يأتى إلى السوق وإنما يذهب مباشرة إلى محلات وسط البلد فى الشواربى وسليمان وقصر العينى.

دنا منه ولد صغير وقال:

. يا بيه.. يا بيه.. فيه بغبغان فى آخر الشارع ده بعد العصافير.. بس هات جنيه.

قال فى سره وهو يمنح الطفل ما طلب مع ابتسامة.

. لا بأس من نظرة.

وجده عجوزا ضامرا. رمادى ورأسه فضية. نحيل شعر الرقبة مغبر الملامح كأنه خارج لتوه من تحت الأنقاض. سأل البائع عن سنه.. قال:

. سنتين.

. أظنه أكبر.

. لا يا بيه.

. ثمنه؟

. ده زنجبارى يا بيه.. أحسن نوع فى البغبغانات.

. ثمنه؟

. أنا اشتريته من سفير المغرب وكان شاريه من جنوب أفريقيا.. لكن هوه أصلا من زنجبار.

كاد يفر من البائع بسبب الثرثرة والكذب.. تذكر أن البائع السنغافورى ذى السنّة الواحدة.. قال: إن أفضل البغبغانات من زنجبار لكنه لا يريد أن يشترى من هذا البائع المستفز.. سناء تدعوه للشراء.

قال بضيق شديد: ما ثمنه ؟

. علشان خاطرك ميتين.

. اتفضل.

. إيه ده.. خمسين.. لا يمكن.

. بلاش.

. خليهم سبعين.. إحنا لنا فى الزبون نظرة.

. امسك.. هات البغبغان.

. اتفضل يا بيه.

حمل مراد القفص نادما.. لماذا يشتريه؟ يحتاج إلى رعاية وأنا لن أنفعه، وهو عجوز أيضا وجربان ويبدو غبياً، ويمكن أن يفقد البصر قريباً.. شكله غير مشجع بالمرة.. ربما تحبه سناء.

استقل السيارة وهو يفكر فى هذا المكان الغريب وهذا التجمع الرهيب لكل ما سقط من القاهرة أو انتزع منها.. ومع ذلك فكل شئ فى السوق مناسب لبعضه.. البضاعة والناس.

دخل الفيلا تاركا السائق مع الخفير والخادم ينقلون ما تم شراؤه.. تنفس برضا وقد غلبه إحساس بأن سناء سوف ترتاح قليلا فى قبرها، صحيح أن اللوحات العالمية وأهم التحف لم يستردها، والشرطة وعدته لكن البعض وصل، ودون أن يعى وجد نفسه يقول بصوت مسموع:

. ها قد عاد جزء من ممتلكاتك يا..

قبل أن يكمل عبارته.. صرخ الببغاء

. سناء.. سناء

أفاق مراد وانهمرت دموعه فجأة.. ارتجف.. لم يجد الفرصة كى يدهش مما جرى.. أخرج الببغاء وقبله.. طلب له طعاما عاجلا وعاد فقبله، ثم بكى من جديد وهو يقول:

. مِشْيت يا صاحبى.. مشيت الغالية..

حبس دموعه وقال:

. مبسوطة يا سناء.. مبسوطة يا حبيبة قلب مراد

عاد الببغاء يصرخ ويقفز:

. سناء.. سناء

حبيبتى
هل تعلمين لماذا أحببتك ؟
لأنك مثل يوم الجمعة
ثديا حنان وسرير دافئ
وشرفة تفوح بعبير الحدائق
وحين يتمدد قلبك على صدرى
انسى الشوارع الحافية والمدن
المثقلة بالخوف
عندئذ أرمي الشمس وراء ظهرك
وأتخلص من الأفكار الخشبية
وأسحب وجهك نحوى
لأتامل عينيك وأصلي.. متجاهلا
تأوهات الأوانى الفارغة.

محمد جرجس

من حسن حظ باعة السوق وزبائنه من أحباب الخواجة وزملائه وعارفى فضله، أن ملاك الموت اختار ليقبض روحه يوماً غير يومى الجمعة والأحد حتى تتاح الفرصة لتوديعه، فسار خلف جثمانه من البيت حتى المسجد لصلاة الظهر عليه عدة آلاف، يتقدمهم أبناؤه الثلاثة والعشرون وأحفاده الثلاثون غير واحد وثلاثين من البنات والحفيدات، كن بين النساء الحزانى الباكيات على رحيل عميد العائلة، وقد ارتدين بالكامل من قمة الرءوس حتى الكعوب كل ما هو أسود فاحم قادر على تفجير الحزن ودفق الدموع.

مضى الموكب المكتئب تشمل أغلب المشاركين فيه حالة من الذهول ليس بسبب صدمة رحيله فكل من عليها فان، ولكن بسبب صدمة بقائه حتى الثمانين مجهول الهوية.. الرءوس المنكسة والغارقة فى الصمت كانت تمور بالأسئلة، والمناسبة لا تعين على أى إجابة، ولا فتح أى موضوع، فالكل حاول قمع ما يدهشه، ولم ينشغل بالموت كما هو الهدف من السير خلف الجثمان.. لقد جاء الجميع لتوديع الخواجة زميلهم فى السوق، ولكنهم - من كثرة الأسماء المتضاربة والمتعددة - لا يدركون على وجهٍ اليقين من هو الراحل الذى يتمدد فى التابوت، وبعضهم سلم

أمره إلى الله آملا أن يحتسب حضوره خيراً ربما يثاب عليه، أيا كان الذى ودع الحياة أو ودعته.

عن هذا الموكب غابت أهم شخصية عرفها كل من شارك فى الجنازة ومن لم يشارك.. تطايرت أسئلة وارتطمت بأسئلة أخرى، وصادفت الأسئلة تكهنات لإجابات عشوائية مجهولة، وانطلقت الظنون والأوهام تبحث وتفتش عن الحقائق التى كثيراً ما اجتذبتها وبددتها غابة هائلة من الشائعات والمبالغات، والهدف الأساسى منها التسلى بالحكايات والسًّيَر (بالمفهوم الشعبى.. أى أخبار الناس) لمحاولة خلق عالم وهمى كبير مواز للعالم الذى خلقه الله.. عالم ربما كان قطنياً هائشاً أو غزلا نباتياً منفوشاً.. عالماً إسفنجياً يقبل أن يستوعب الجديد وأن يمتص ويكبر.. يمتص ويكبر، عالم يتمدد ويشمل الفراغ والليالى الباردة والفقر الشامل.

غابت عن هذا الموكب أهم شخصية هى الأحق بكل كلمة، يمكن أن تتضمنها السطور التالية.. إنه محمد جرجس الذى مر اسمه بالعديد من المراحل.. تغير معها حسب الظروف والملابسات.

فقد كان محمد موسى لعدة سنوات ثم محمد جرجس لعدد آخر من السنين، ثم محمود راضى لسنوات كثيرة، ثم الخواجة، والحكاية بأكملها بناها القدر والإرادة البشرية. التى يمكن أن تلعب دورا مهما أحياناً. على حادثة جرت فى إحدى قرى سوهاج قبل ستين عاماً (تزيد هذه المدة حسب موعد النشر) وكانت تقريبا بعد ذيوع خبر انكسار هتلر.

قتل واحد من عائلة الشهايبة خصمه من عائلة الجهاينة، وعلى الفور أسرع الجهاينة بكافة رجالها ودون دعوة يجتمعون لبحث الأمر الصادم دون حزن أو بكاء، ولكن بحسم لتحديد المطلوب قتله من الشهايبة، وتقرر أن يكون عبد الإلاه جرجس الشهايبى، شقيق محمد الذى تحمله الأعناق والرءوس المتسائلة الآن، لتضع نهاية لقصة طويلة، وربما لا تضع هذه النهاية، لأن الموت كما هو معروف نهاية الجسد وليس نهاية الكلام والحكايات

المتجددة النابعة من الشخص ذاته.

وفى يوم العيد استعد رجل الجهاينة بسلاحه مدعوماً بدعوات أهله رجالاً ونساء أن يوفقه الله لاختطاف روح عبد الإلاه لبدء فيضان الحزن الذى يليق بمن رحل، فالأسرة يجب أن تحزن عليه، لكن الوقت الآن وقت عمل وتتمنى ألا تتعطل كثيراً إجابة السؤال المعلق بالروح والعمر والكرامة.. الحياة ذاتها تبقى معلقة بلا أى طعم ولا لذة إلا إذا هدأ القلب بالثأر، ويبدأ الحزن الذى هو فرح، حيث تختلط الدموع بالطبول وتعرف العيون مكاحل النوم، وبالحزن يرقص القلب، وتستحق الرءوس أن ترتفع نحو الشمس.

وصلت إخبارية من فرق الاستطلاع أن عبد الإلاه سيركب المعدية بعد العصر ويعبر النيل إلى الضفة الأخرى لزيارة أهل خطيبته، وسوف يحرص على التخفى والصمت وتبديل الجلباب والطاقية والكوفية التى اعتاد أن يرتديها أغلب السنة الأخيرة.

قبل أن تغادر المعدية الضفة الشرقية للنيل بزمان، كان خصمه قد اعتلى شجرة تركب الضفة الأخرى.. كمن بين دغل من الأغصان وبعينى صقر مسح أرض الضفة الشرقية وأوشك أن يحصى نملها.

تحركت المعدية محملة بعدد كبير من الركاب وتمكن منذ اللحظة الأولى من التقاط هدفه والتركيز عليه، لكنه كان مستثارا جداً بسبب الزحام والاختلاط والتكدس الذى قد يعوق المهمة، ومع ذلك أدرك أن الظروف لن تكون مهيأة بهذه الصورة المثالية مرة أخرى، وعليه أن ينجز مهمته المصيرية اليوم.. بل الساعة.. تاريخ عائلته كله يتحدد اليوم.. بل الساعة.

خاضت المعدية فى الماء ومعها قلبه وعيونه.. يمسح كفه فى ملابسه كل دقيقة من العرق السيال ويرطب حلقه الجاف، وفى منتصف النهر تقريباً لاحظ اهتزاز المعدية وميلها المتصل على كل جانب بالتبادل، ثم شرعت تهبط فى هدوء وسلاسة إلى أعماق النهر العجوز، والبندقية ترتعش وعيون صاحبها تكاد تخرج من

محاجرها دهشة وغيظا، حتى لقد أخذ يضرب الأغصان ويمزق الأوراق ويخبط رأسه فى البندقية كأن عائلته قد غرقت مع المعدية المجنونة.

اشتعل الصراخ فى البرين وتحول العيد الكبير إلى مأتم كبير، ولم تحزن الشهايبة فقط، ولكن الجهاينة أصحاب الثأر حزنوا أيضا.. أهل عبد الإلاه أحزنهم رحيل ولدهم الغالى، والجهاينة أتعسهم إفلاته من الموت الذى كانوا يعدونه.. ساءهم جدا أن القدر يلعب ضدهم وقد تسبب فى إرجاء فرحة الحزن.

فى الليلة ذاتها اجتمع الجهاينة واختاروا بدل الفاقد الذى يليق أن يكون هدف ثأرهم.. محمد جرجس.. علم الشهايبة عن طريق فرق الاستطلاع أن الخصوم استقروا على محمد فأمره كبار العائلة بالهرب.. واستقبلته القاهرة بوصفها الملاذ والمهرب حتى أصبحت مثل المعدية.

جد جده أيضاً كان اسمه محمد، ولما كان فى سن الطفولة أحب جاره جرجس، وتصادقا وتلازما فى كل شئ، ولم يفترقا يوما، حتى أن والد جرجس عندما أصر على أن يصطحب ابنه ليعمل فى معصرة الزيت، طلب من أبيه أن يعمل معه محمد. وافق الأب مترى، ومضت الشهور فى صالح محمد الذى أخلص للعمل وأحبه.. يبذل الجهد والوقت ويحرص على مال المقدس مترى بعينيه، وعندما كانت الشهايبة يطلبون من محمد التوقف عن العمل عند مترى ومشاركتهم فى زراعة الأرض يرفض مترى ويزور العائلة راجيا السماح لمحمد بالبقاء فى المعصرة، فلم يعد يأتمن أحداً غيره ولا حتى ولده جرجس، كما أن محمد يفيد فى بقاء جرجس والتزامه، إلى أن فوجئ الأب بالتيفود يفترس ولده ويتمكن منه إلى أن اختطفه الموت بصورة فاجعة.. زاد تمسك مترى بمحمد بوصفه بديلا عن الراحل، وكلما سأله صديق عن ولده جرجس، أشار على محمد.

. هذا هو ولدى

وإذا تشكك البعض، فإنه يقول إن محمد بالنسبة له هو جرجس

وأعز منه، وهكذا اشتهر الجد بأن اسمه محمد جرجس حتى غدا اسمه الرسمى ولم تكن أيامها أوراق أو سجلات.وزاد مترى بأن كتب فى وصيته قبل موته لمحمد جزءا من التركة.

نزل محمد الجيزة وهو عازم على مخالفة توصيات أهله الذين نصحوه بالذهاب إلى أحد أقاربه لأنه فى ظنهم سبيل النجاة.. قرر أن يواجه الحياة وحده.. فالله وكيله.. تصور أن الحياة بدونهم لن تكون صعبة مادام يعتمد على نفسه بعد الله، وتداول فى رأسه أيسر المهن التى تليق به كشخص بلا خبرة وانتهى إلى أنه مرغماً سيسير على درب الصعايدة الذين حطوا الرحال فى مجال المعمار.. سار على قدميه يجوس خلال الأحياء حتى عثر بعمارة تحت التأسيس.. طلب العمل ووافق ريس العمال.. سأله عن اسمه، قال: محمود راضى.. كان قد جهز نفسه للسؤال من بدرى.. حط كيسه فى ركن وظل يعمل معهم إلى أن طلب منه صاحب العمارة أن يبقى لها حارساً، وهكذا أغلق صفحة الارتحال من عمل إلى عمل، واستقر به الحال فى عمل ثابت ومأوى.

كلما سار محمد أو جلس فى مكان عثر على شئ مهمل.. قلم. زرار. شبشب. خبز. زمارة. ملعقة أو سكينة. مسمار. حلق فالصو أو ترياس. شنكل شباك. مسطرة..شاله وحطه فى شوال.. كان قد شغله كلام الناس فى طريق السفر إلى الجيزة، وإبان عمله فى المعمار.. حفر فى رأسه الكلام وقضى الليالى يجتره ويعيد مضغه ويفرزه.. سمع من يتحدث عن الأيام الرديئة وفهم من الكبار إن الرديئة هى الناس وليست الأيام، والناس هى التى تصنع الأيام وتلونها حسب مزاجها ومصالحها. وقال الناصحون:

- خد من الفجل الورق ومن اللحم المرق ومن الحَمام العرق.. يعنى لا تبدد وقتك فيما لا جدوى منه واستفد من كلٍ شئ.. ولما قالوا.. الدنيا إن جت باض الحمام على الوتد وإن ولت قطعت السلاسل.. وقالوا.. قيراط حظ ولا فدان شطارة.. لم يعجبه الكلام، ليس لأنه خطأ، لكنه قال كما قال أيضاً من فهموا الحياة:

إن هذا خارج عمل الإنسان، حتى الحظ ذاته لا يزور غافلا ولا يتعامل مع كسلان، لكنه استراح لكلام واحد واعر قال: الأمانة لِما اتجوزت العرق خلفت البركة، وقال الرجل ذات نفسه: العِرى يعلم الغزل وقال أيضاً: شعرة من هنا وشعرة من هناك يعملوا دقن، والقرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود.

لفتت نظره فكرة الكراكيب. ينحنى ويلتقط كل شئ متروك فى العمارة أو فى الشارع... اضطر للسير شبه محنى عيناه تحدق فى الأرض التى تحتضن كل شئ ساقط أو منسى. وتدربت كل حواسه على الجمع والالتقاط حتى سمع بأذنه من يهمس لجاره وجاره يهمس له:

. واضح إنه هربان من سجن أو فضيحة.

. شكله سهُن ومش سهل.

. كل راس مطاطية تحتها ألف بلية.

. ازاى نعرف سره؟

. ده بير.. كل كلامه.. ربنا يهدى الحال.. الحمد لله.. نعمة.

. سيبه.. ح يقع لوحده.

جمع المسامير والأكواب. الشباشب والكراسى المحطمة. الأكر والخرق. الأساور الألمونيوم والملابس الممزقة. زجاجات الخمر والخرز. الكراريس والكتب.. نساير الخشب والأسلاك. الإبر والبكر والأحبال والمراكيب.. لما انسدت عليه غرفته الضيقة أجر لها دكان، وصاحب كل من يفهم فى إصلاحها حتى ترجع سليمة وتشتغل ويعرضها للبيع ولو بنصف الثمن.. راجت المهنة وصبت فى حجره فلوس ياما.

اشترى عربة بيد وشغّل عليها فتى فى الثامنة عشرة، يطوف الأحياء ينادى على الروبابكيا، ونصحه ألاّ يدفع غير صنف القرش والمليم.

قصقص الخرق إلى شرائط وغسلها جيداً ثم مضى يربطها فى بعضها البعض وسلمها لصاحب النول عمل منها سجادة، ومن فروة الخرفان غزل صوف وسلمه لصاحب النول عمله ثلاثة أكلمة،

وأصبح مع الوقت كل شغل النول لمحمود.

آمن بأن كل شئ فى الدنيا صالح يمتد فى عمره وتتجدد عافيته.

. المطلوب منك يا شاطر كما قال من سبقونا.. لبس الأسمر أحمر واضحك عليه.

جرب هذا مع كراريس التلامذة، فنصفها لم يمس.. جمعه ووضعه بين أغلفة ولصق الورق بالصمغ والدبوس، سرعان ما ظهرت له زباين.. وكل شئ لازم يكون له زبون.

آن الأوان يترك البوابة ويستأجر مخزناً كبيراً يستأهل ويلم.. عثر على بغيته فى بدروم عمارة. أقام فيه غرفة له بالخشب وباقى المساحة للكراكيب. دعا من لهم خبرة فى الإصلاح.. يمرون عليها فى وقت الفراغ ويصلحون حالها.. العطلان فى أيديهم أصبح يشتغل ويدور، والممزق خيطوه ولمعوه وصار يبرق.

فى البداية كان مجىء الصنايعية للمشاهدة والفرز وعمل لبعض الوقت، ومع كثرة المعروض احتاجهم ليعملوا لديه اليوم بطولة، وبعضهم استعصى عليه التفرغ.

اشترى عربات جديدة وشغل عليها الشباب. يلفوا فى الأحياء ويجمعوا الروبابكيا بتراب الفلوس حتى بلغوا من العدد خمسين، بعضهم تجر عرباتهم الكبيرة حمير.. أصل كل السنين ما تمر تزيد الفلوس فى أيادى الناس ويهون عليهم أن يتخلصوا مما يملكون، بعد أن كان رميها يتم بخلع الضرس.

أيام بعد أيام بانت النعمة عليه. لاحظ احترام الناس له وسعيهم للاقتراب منه.. يوسعون له الطريق إذا مر وناقص ينحنوا.. تذكر فى ألم من قال:

. الفقير لا يتهادى ولا يتنادى ولا يتسمع له فى الجمع شهادة.

حمد الله وقال: كله بأمره.. نصيبك المكتوب لك قبل الحظ والشطارة.. وفى السماء رزقكم وما توعدون.

طلب من خمسين آخرين أن يحملوا الجاهز الذى تم إصلاحه

أن يتبعوه لبيعه فى سوق الجمعة.. أعلن اسمه الجديد.. الخواجة، بائع الأجهزة الكهربائية.. بعد سنتين أصبح الخمسون مائة، وبعد سنوات أصبح المائة ألفا.

تزوج وأنجب من البنين تسعة وتزوج بثانية وثالثة ورابعة وانتشرت الأولاد فى الأرض..

مبكرا كان قد قرر ألا يراه أحد إلا سبعة هم من يتميزون بالخبرة والإخلاص، اختارهم من بين مائة تعرف عليهم ثم قطع علاقته بهم، لكنهم جميعاً فى المؤسسة الكبيرة التى تطعم على الأقل ألفى أسرة لا يسمعون عن محمد جرجس ولا يعرفونه، ويسمعون عن الخواجة ويعرفه البعض بوصفه كبيرهم وزميلهم فى السوق.

فرشته مخصصة للمكاوى والشفاطات. المناشير الكهربائية. والخلاطات. المسجلات والراديوهات. وماكينات الحلاقة ومواتير مياه الرى ومياه الشرب والميكروويف والدفايات.. الغسالات والثلاجات والكتشن ماشين.. السخانات والأباجورات والسيشوار وكل ما تحركه الكهرباء.. وركن كبير لتجارة الأدوات الصحية الخارجة من العمارات المهدمة ترجعها المهارة جديدة وتلفت الأنظار.

قبله يقف صديق عزيز يبيع الساعات القديمة والحديثة من كل الماركات.. وبعده يقف صديق آخر يبيع أدوات الطلاء من الصنفرة وسكاكين المعجون والفرش من كل شكل ولون.

مائتا عربة تجمع الروبابيكا من القاهرة والجيزة غير ما يجمع من المدن الكبيرة والصغيرة ويلقى فى المخازن حيث يعمل عليها بدأب، ربما بالليل والنهار خبراء فى كل مجال يصلحون المكسور والعطلان.. يشرف عليهم جميعاً أبناؤه وأحفاده الذين آمنوا بفلسفته التى تقوم على وضع المليم على المليم يصبح بنكاً.. وسلم الخواجة السلطة لأولاده تدريجياً وأصبح فقط شيخ الباعة فى سوق الجمعة.

الخواجة لا يكف عن تأمل السوق

ذلك الجسد الجغرافى الضخم الذى يجمع. ولا يدرى أحد كيف. بين العشوائية والنظام.. يشبه كثيراً أمعاء البشر والحيوانات.. ستة أو سبعة شوارع عريضة يمتد كل منها نحو كيلو متر توازى الشارع الرئيسى الذى يتوسط كوبرى السيدة عائشة الواصل بين الفسطاط والمقطم، تقطعها عشرات الشوارع مختلفة الطول والعرض والاستقامة، تتفرع منها أزقة وعطوف.. تدور حول بعض المبانى وتلتف حول المقابر وتنحنى تحت الكبارى والجسور.. البضائع منتشرة فى كل مكان.. مفروشة على الأرض وعلى الترابيزات وعلى الحوامل، ومعلقة على الأسوار هناك مساحات تكفى حتى لو فى اتساع خرم الإبرة للبيع والشراء، والوقوف والمساومة وقياس الملابس والأحذية والمعاينة وشرب الشاى والحشيش والعناق والتحرش، والسرقة والحب والخطف والتعارف ولقاء الأحباب الذين فرقت بينهم السنون، وهناك فرصة كاملة أو ناقصة لكنها مرضية للمطاعم الصغيرة والمشروبات والخياطة وسن السكاكين والإصلاح بكل أنواعه، ومع البضائع يمكن أن تعرض الخراف والماعز والديوك والنعام والبط والإوز والدجاج والأعلاف، وأماكن فسيحة للحمام وسمك الزينة والعصافير والسلاحف والقطط ذات الحيثية والثعابين، ويسمح كذلك للخيول والبغال والحمير أن ترتاح وتأكل وتشرب وتسقط فضلاتها وأن تضاجع بعضها بعضاً، وقد يفعل البشر مثل ذلك أحياناً وبحسب الظروف والجسارة أو التربية والتعليم.

الشوارع تشبه مواسير هائلة مكونة من ثلاثة أضلاع.. جدارين وأرضية، أما الحائط الرابع فمفتوح لرقابة السماء أو عنايتها.. وجبل المقطم من الشرق راكب وحاضن وميَّال وكله حنية، رغم الجهامة.

الحركة فى السوق تتدفق بسخاء وحميمية. بعنف ولهفة.. فى عجلة أحياناً أو فى حذر.. البعض يرصد فى ترقب صابر والبعض ينقض. المساومات سيدة الحوار فى البدء والختام.. هى الحبل المشدود بين المشترى والبائع.. صراع وتأهب. الكل يتحرك فى

دائرة أمل مرنة وتقدر الظروف ولا تسمح بالقفلة.

الخواجة لا يكف عن تأمل السوق وأحوال أهله

البائع يبالغ فى رفع السعر استعدادا لمرحلة التنازلات التى لابد قادمة.. المشترى يبالغ فى خفض السعر تحسباً لبعض الزيادة التى لن يقبل البائع إلا بالكثير منها.. الخبرات تتناطح والألفاظ الخشنة قد تساعد فى عقد الصفقات وربما تنجز المهمة كلمات رقيقة ومداعبات، وقد يمتد الخط على استقامته فيتم التعارف، وتتسرب بعض المعلومات، فيكتشف طرفا المقص. البائع والمشترى. إنهما من حى واحد، أو كانا كذلك يوماً، أو يعرفان معاً شخصاً شهيراً فى الحتة. بلطجى أو قهوجى أو خريج سجون، وربما كان الثلاثة فى عنبر واحد بالسجن، فى عام بعينه، ولعلهما كانا ذات سنة أو سنتين معاً بالعراق وسكناً معا حى الأعظمية أو الناصرية أو كانا معا فى الرياض أو فى بنغازى.. وربما كانا بالجيش، وها هما يتذكران معا الصول مغاورى الذى نكّل بهما وأذاقهما المر كاسات حتى يصبحا من حماة الوطن.. ورغم كل الحكايات أو المنازعات فالكل خارج رابح ومبتسم حاسس كأنه فى نزهة.

الخواجة لا يكف عن تأمل السوق وأحوال أهله

كيانات متداخلة وعصية على التوصيف، تتحرك وتتصادم فى السوق العجيبة التى يلتقى فيها كل ما خلقه الله، من بشر وحيوانات وكائنات برية وبحرية وجوية مع كل ما خلقه الإنسان من بضائع، يستحيل حصرها.. قال له البعض:

. لقد سافرنا إلى بلاد كثيرة فى العالم وزورنا أسواقاً هائلة، لكنها لم تكن بهذا التنوع ولم تجتمع كل هذه السلع والمخلوقات معاً. فإما السوق للسيارات القديمة أو للعدد أو للملابس، و هذا جميعه معاً، لكن ليس معها العصافير والسمك والحمام وغيرها، أما الأهم فهو السماحة والتقدير.

الكل يتدفق عبر الشوارع والأزقة المكدسة بأغلى المعروضات وأحقرها.. وليس كل من يجوس خلال السوق الشعبى الغول من

الفقراء والبسطاء.. إنهم من طبقات وشرائح مختلفة، تتنوع بينهم الاهتمامات والهوايات والمصالح والحاجات.. قد يكون بينهم من جاء بحثاً عن مسمار صغير لطلمبة مياه يتوقف عليه. بسلامته. عملها في رى مئات الأفدنة، وقد يأتي إليه من يطلب جهازاً كاملاً لابنته المخطوبة التي آن أن تدخل بيتها الجديد كعروسة، وفي السوق كل ما تحتاجه حتى ما يلزم لزوجها ليتمكن من تحقيق فخر رجولته، وقد تأتي سيدة لتبحث عن مكحلة من مكاحل المماليك أو هون نحاس، وقد يأتي الغاوى علّه يجد ذكر حمام نمساوى مزين بتاج من الريش، أو يزور هاو السوق بحثاً عن سمكة زينة دبل آيز وعندئذ يشعر إنه امتلك الدنيا، والرغبات بالملايين وهي أكثر بكثير من أصحابها.

كل السوق أحب الخواجة لأنه رجل طيب ومستعد دائما لمساعدة من يحتاج، وفي الوقت ذاته قليل الكلام. كثير الفعل.. لا يؤذى أحدا ودائم الابتسام.. يلجأ إليه أهل السوق كثيراً للتوفيق بين المتنازعين، وكم أرسل المعونات في السر لبيوت الباعة الذين قد يمرضون أو تقبض عليهم الشرطة لأى سبب وكم من الأسباب تصلح لذلك، وللأسر التي يموت أحد من ذويها أو من يسرق ماله أو من تفسد بضاعته.

ذهب الجميع إلى العنوان الذى يسمعون عنه لأول مرة. كان الكل يحسب أنه يقيم في بيت كبيوتهم، ففوجئوا بأن جثمانه يخرج من فيلا فخمة أمامها عشرات السيارات الفارهة، وقد سد الشارع العريض عدد كبير من الرجال الذين يرتدون الأسود الفاخر والنظارات السوداء الثمينة.

عندما علم المعزون من رجال السوق أن العمارات الأربعة العالية كناطحات السحاب ملكه وأولاده.. أيقنوا أنهم جاءوا إلى ميت غير ميتهم، رجلهم كان مثلهم على فيض الكريم.. سألوا على استحياء من لا يعرفونهم فتأكد إنه الخواجة.. ميتهم، والتفوا بمن كانوا يكلفونهم بالأعمال ويحاسبونهم حساب الملكين، وعلموا إنهم مستخدمون لديه وقد كانوا يظنون أن رجال

السوق بمن فيهم الخواجة تابعون لبعض هؤلاء السادة.. تبين لهم أن الخواجة اسمه الأصلى محمد جرجس القادم من سوهاج وهو المسجى الآن فى الخشبة المحمول على الأعناق إلى القبر حيث الاستراحة المؤقتة تمهيدا للسكنى فى دار الحق الأبدية، أيا كان نوعها حيث يتم التوزيع طبقاً لحسابات البصير العليم والغفور الرحيم.

ها هم يحملون جثمان الرجل الذى يفتح نصف بيوت رجال السوق ونسائه ويطعم ما لا يقل عن عشرة آلاف فرد وسيظل يطعمهم حتى بعد رحيله.. لم يكونوا يعلمون، وكيف لهم أن يعلموا وقد تم بناء هذه المؤسسة بشكل محكم وعمل متواصل، وكل من أدارها كان مثله قليل الكلام.. آن أن يرحل فهذا حال الدنيا ولكل أجل كتاب.. يرحل دون أن يعلم أن من بين من يعملون لديه رجال من بلدته وبعضهم من أقربائه، بل لم يعلم وهم لم يعلموا أنٍ بعض من عملوا فى السوق وتحت مظلته من طالبى دمه، وعذبهم طويلاً السؤال عنه، وظل السؤال يعلو كل يوم حتى فاق برج القاهرة، وغاص فى الأرض والقلوب النازفة حتى من أهله إلى أعمق الأعماق، لكنه الوحيد فى العالم. طبعاً بعد الله. الذى يعرف أن حماية حياته وسره واستمراره لا يكفلها إلا هذا البناء المحكم.. البناء المسمىً.. محمد موسى جرجس الشهايبى الشهير بالخواجة والذى كان مؤقتاً يحمل اسم محمود راضى، ونقل ميراثه الفكرى والمادى والعملى والإنسانى إلى أولاده.. فهل مازالت هناك أى كلمة من سطور الثأر يمكن أن يقرأها أحد فى كتاب العائلة، ويتسلل نهر الدم إلى الأبناء و الأحفاد، وهل يطول أحفاد الأحفاد.. أم تراه جف مثل كثير من الأنهار ؟!!

أيتـــهـــا الـولاّدة الحـنون..
الخـصـيـبـة الحـاضـنـة الـراضـيـة
الملهمة.
أيتــهــا الحـكّاءة بـالأوجــاع
والأحـلام والغـوايات الموعودة..
البـــواحـــة بما فى النفس من
أشـجـان ومـا فى الروح من توق
إلى المجهول.
أيتـهـا الشـابة لن يبلغ الشـيب
مفرقك أبدا.

شــطة

إذا وصل بك الميكروباس الذى سـ يحملك محطتين فقط من السـ يدة عائشـة إلى التونسى حيث نهـاية الخط وأول سـوق الجـمـعـة، لابد تنزل يا بن عـمى لأن الزحـام الذى هو بروفة ليوم القيامة لن يسمح لك بأن تمر راكبا سيارة ولا حتى بسكاليـتـة بعـجلة واحـدة.. الكل لازم ينزل ويأخـذها على القدمـين. وشاطر من يتمكن من شق طريقه بأمـان وسط خلق الله وعربات الكارو وترابيزات الفرش وأكوام البضائع من كل شكل ولون، غير الفول والطعمية والكبدة والمشاريب، وكراتين الملابس الداخلية وأحواض السمك الفارغة والمملوءة وصناديق الأحذية وأقفاص الحمام والعصافير والانتيكات ولوازم النسوان وكل عجيب وغريب، وكل ما تعرفه، وما لم يخطر على بالك يوماً.

- صلى على اللى يشفع فيك.

سأكون يا ابن عمى فى انتظارك أمام ترابيزة كبيرة عليها كل التوابل والعطارة، ما سمعت عنه وما لم تسمع.. البردقوش وماء الورد. الجنزبيل والقرفة. الكركديه والحلبة. الفلفل والكمون. الينسون والشمر. الحنة والبهارات. جوزة الطيب.. المسك والبخور الجاوى. النعناع ولبان الدكر والزعفران.

على شمالك تجدنى بعد حوالى مائة خطوة، مجاور لفرش

كبير عالى، من بعيد تلمحه عيونك، يبيع الستائر والمفارش والمخدات والملاءات ولوازم سراير العرسان.. عقبى لك. فقط اسأل على شطة. يعرفنى ألف بياع حتى الزباين أكثرهم يعرفون ابن عمك، وراءنا جبل المقطم وأمامنا بيت مهدود على جانبه سبيل لزوار القبور والعابرين.

لا تجعل قلبك يفتح بابه للهموم.. عقلك لم يعد له لزوم. ومهما كان مكسبك ملاليم، حط رأسك على الوسادة ونام راضى.. توكل على من خلق الكون ونشاه، لا ينسى أبدا عبيده، وسلام يا ابن عمى.. أشوف وشك بألف خير، إنت وكل أهل البلد.

كان صعباً أن أحكى له بالضبط حقيقة الأحوال.. وهل كان يصح أهرب بالكلام منه، وهل كان يصح أن أعمل له البحر طحينة وعسل؟.. وهل كان يرضى ربنا أصدمه وأقول له ابن عمك ضاع فى شوارع المحروسة، ومقدر ومكتوب أرجع عن قريب للبلد حافى؟.. هل كان من الأصول أفضفض وأقول: إنى بالعافية ألقى عشايا وإنى أكمله نوم؟.. يستحيل أهزمه أو أخدعه حتى لو كنت أنا هلكان.. أنا وهو وكل خلق الله على فيض الكريم.. صلوا على من بُعث للعالمين رحمة. عليه ألفين صلاة وسلام.

خلونا فى الموضوع المهم.. أنا قلبى انشبك وأصبح فى غير طوعى.. دماغى تحولت، وما عاد لى قرار، كل تفكيرى فى بشاير.. لعبت فى رأسى وفتحت فيها من السكك والدروب ما يؤدى إليها.. إذا رفعت عينها فى عينى وسلمت للفضا نظرة، نفذت بين ضلوعى وفرفر قلبى كما حمامة شقها سكين.

بشاير.. ست توزن من الرجال عشرة.. ما العمل وأنا ساكن فى شقة تحوى من الرجال عشرة؟.. أربعة منهم هنا فى السوق وثلاثة شيالة فى سكة حديد مصر، وواحد عتال على نقل خضار وفواكه من الجناين والغيطان لسوق العبور، وواحد صبى قهوة وأخرهم غريب الشأن وماله عدلة وكل يوم بكلام.. مرة يفوح منه العطر وعامل قصة، ومرات جربان، مرة مكسى ومرات عريان، مرة يرمى الفلوس رمى، ومرات مفلس، لكنه فى كل الأحوال يمزع ويفشر

عمال على بطال. أبدا لا تبعد عنه سرقة كتابى الوحيد الذى أواظب على القراءة فيه، أغانى وأشعار جاهين ومرسى عزيز ورامى والتونسى.. أنا فى غيظ ما بعده غيظ، وكيف أصبر على الجار السو يا يرحل أو مصيبة تشيله.. الود ودى أفكر له فى تفكيره تبعده عنا.. عقلى وقلبى ووقتى يا ناس سلمتهم لبشاير.. تأمر وتنهى كما تريد وأنا راضى.. المهم حبل الأمل فى الوصال لا ينقطع حتى أنول المراد من رب العباد.

الحلوة تبيع شباشب بلاستيك، رجالى وحريمى وأحذية أطفال صغيرة ملونة.. لها وجه أسمر وملامح تحل من المشنقة وعيون عسلية كبحر وسيع ومحيط. ظروفها مثل ظروفى ولا يهم جلبابها المتسخ وطرحتها الممزقة

مجرور أنا كسمكة فى سنارة لصاحبة الوجه الجميل القاعدة قدامى.. أنا منياوى وهى من بهتيم.. نفسى يكون لى فى قلبها مطرح.. قال عرفة بائع الصُرم.. عندما أطبقت الحيرة على مراوحى، ملت عليه اسأله رأيه:

- لا تسلم لها.. إن كيدهن عظيم.

الله يسمَّك يا بعيد.. اندفعت فيه:

- أسلم لها إيه يا عرفة يا تعيس من يومك، وأنا فى الأساس شحات.

- وابنها ؟

- فى عينى.

- والسكن ؟

- المقابر جنبنا.. تلمنا.

- والمصاريف ؟

- لا تعقدها.. حصيرة وقلة.. وبالنهار السوق يطعمنا.. كل الأشداق لها رزاق.

- تضحك على نفسك.

- يا ابن الحلال.. المهم الرضا، واللقمة والهدمة آخر شئ.

- ربنا يهدى لك الأحوال.

الغريبة إن الحيرة تبددت بعد حديث عرفة. قلبى نفش وانتعش ملأ قيعان صدرى وكان عطشان حنية، رفعت رأسى للسما.. كان السحاب يمر.. يفسح الطريق للشمس حتى ترانى..

. أنا والله طيب وراغب خير.

فى يوم أخذت ابنها فى حضنى.. شافتنى، تبسمت.. رفض قلبى وداخ.. الولد ولدى يا ضى العين.. تقابلت نظراتنا وتعانقت رغم الزحام.. تحركت عيونى وراء عيونها حسب الفراغات التى تطل بين صفوف العابرين.. يسألنى الناس عن أسعار الفلفل والكمون أجيبهم بأسعار القرفة واليانسون..

. وبكام يا عم المستكة ؟

. ببلاش يا عروسة

. يا بنى هات بجنيه شمر

غمزت بعينها وعدلت الطرحة.. نط قلبى ودق.. هبيت من مكانى.. خطفت ابنها وأجلسته على الدكة.. هربت من الزباين والبضاعة.. الله وكيلى.. شققت سبيلى بين كتل البشر. فى أقل من ثانية كنت بجوارها وجهها أتفتح من المفاجأة وشهقت.. تفلت فى عبها

. يا شطة.. إخص عليك.

سحبت يدى يدها وحضنتها. يدها دافئة. سمعت فيها نبض قلبها الذى يخبط.. قالت:

. اتجننت ؟

. أيوه

. الناس يا وله.

الكلام يفرح.. رجع قلبى يتنطط.. ابتسمت وتذكرت يدها.. سحبتها وتلفتت حواليها، لقطت عينى نظراتها وهى تتجه إلى هاشم فى محل المفروشات. وجدته يرصدنا وفى عيونه شرار.. الغيرة ترعى فى قلبه.. لا يا صاحبى.. آخر يوم فى عمرك لو قربت منها.. سيبنى يا بنى أرسى لى على بر.. لا تلخبط غزلى، ولا تعكر مياهى.

. وبعدها يا بشاير
. كل شئ بأوان
. الحب قبل المال
. طبعا
. طب بللى ريقى
. اطمن
. ياه لو ضمنا يا بشاير بيت واحد.. ح تكونى فيه ست الستات.
. فرجه قريب.

في اللحظة ذاتها شقت الكون صرخة.. صرخة رفيعة إنما تزلزل. لم أعرف تماما مصدر الصرخة.. حاولت ألا أهتم لأكمل سكتى معاها.. مشغول أنا من ساسى لرأسى بمصيرى المعلق بقلب حائر.. انفجرت ناهضة وجسمها كله ينادى عليه.

. ابنى

انتفضت من قعدتى لأقف وأتبعها.. ارتبكت حتى كدت أقع.. على الأرض سبقنى كفى وانسندت عليه. ماء بارد سكبوه على نار. طارت الأفكار. تبدل فى لحظة كل شئ.. ماله ابنها؟.

قمت أجرى نحوها.. الصراخ فظيع.. الولد الشقى وجهه بشعره مغطى بالشطة.. يدعك فمه وأنفه وعينيه.. يكاد يختنق.. الوجه أحمر فى أزرق فى أسود.. كرة من لهب.. يتلوى وينتفض.. أنا قلبى انخلع.. أدركت أخيراً المأساة.. غرف الولد من الشطة وأكل.. يخرب بيت من أنجبك.

فى ثانية خطف الولد هاشم وطار على المقهى وهات يا غسيل، وبشاير هات يا صويت ولطم.. فجأة مالت على بضاعتها.. أخذت تسحب الشباشب وتضربنى فى رأسى وصدرى ووجهى.. بدت قوية ومكوية.. تضرب كوحش كاسر، بكل أعصابها وغضبها.. يدها ثقيلة وأنا أدافع بكفوفى بدون جدوى.. الضرب واصل.. كلما الشباشب تمزقت سحبت غيرها.. رجالى وحريمى.. لا يمكن يكون ما جرى لى ضرب حبيب ولا كان ده العشم.

شعرت كأن السوق كله يضرب معها.. لم أجد أحدا يدافع عنى

أو يقول كلمة تخفف.. ظهر فى النهاية شخص يسأل عنى.. دلُّوه علىَّ.. كنت قد وصفت له عنوانى بالضبط وزيادة.. وصل من البلد فى اللحظة ذاتها التى ضاعت فيه كرامتى ورسمالى والأمل الذى فى الطريق.. الأمل ضل وابن عمى وصل.. أخذنى فى أحضانه..

قلت له وأنا أغالب دموعى: العار يا ابن عمى أطول من العمر

× بعد شهر وشهيًر والتانى قصير، تزوجت بشاير من شطة وهشام رقص فى الفرح لما قالوا له كفاية.

«ما كذب الفؤاد ما رأى»
هذى خـيـولك تركض فى
البـرية من أجل المتـعـبين
والجوعى..
من أجل من افترشوا أسِرَّة
الأحلام.
كم طَيْبت خاطرهم ومسحت
على أعناقهم التى دكَّها نير
الحياة!

المصيدة

مثلث جغرافى لا يكاد يعرف غيره، البيت والمقابر وسوق الجمعة.. ثلاثة أماكن . مرتبة حسب الأهمية . يتدله فى حبها.. ليست مجرد أماكن وإنما معالم فى جسده وروحه، وقلبه وعقله، كل منها له أدواته ولغته وناسه وأحبابه، وهو فيها جميعا صاحب كلمة وهيبة.. له أيضاً حب راسخ وإعجاب.

الأماكن الثلاثة لا يحتاج للحركة بينها إلى وسيلة انتقال، رجلاه تكفياه، ولا يحتاج ليؤدى دوره، ويلتقط لقمة عيشه إلى نظر، وربما لذلك حرمه الله منه قبل أن يولد، ومتّعه بعقل وإحساس ولسان.. تعود الرجل أن يحمد الله آناء الليل وأطراف النهار على النعم التى لا يحصرها حصر. بكت أمه شهراً كاملاً عندما انتظرت أن يفتح عينيه بعد ولادته، فلم تفتح، وعندما . بعد شهور. انفرجت الجفون نصف انفراجة بدت العين بلا إنسان.. مجرد مساحة رمادية تتحرك فيها سحابات غامقة كخرقة للمسح طال بها العهد، لكنه يسمع دبة النملة وتثاؤب الشياطين وحوار الملائكة، وكم أمسك بعضها متلبسة بتسجيل بعض أفعاله . إبان سنين الصبا . التى قد لا ترضى عنها السماوات السبع، وهو لا يجد غضاضة فى الاعتراف . فى ساعات الصفا والسمر. بأنه بدأ طريق الخطيئة مبكراً.

لا يغضب لأنه فى السوق يسمونه المفتح ويقولون:
. المفتح كان هنا من شوية.. المفتح جاء.. المفتح راح.
لكنه فوجئ بضابط الشرطة يسأله:
. قوللى يا مفتح.. تعرف محسنة ؟
رفع وجهه إلى السماء نصف رفعة، كأنه يتأهب لاستقبال المدد ثم ابتسم، ولا يدرك من لا يعرفه إذا كانت الابتسامة سخرية، أم إنها دلالة على ثقته بما لديه من معلومات.. قال وهو يفرك كفيه الغليظتين:
. جارتى
. عرفت إنها اختفت ؟
. لم تختف.. ذهبت لتزور أهلها فى شبين.
. إيه رأيك ؟
. فى خلق السماوات والأرض ؟
تنهد الضابط، ثم قال:
. فى سبب اختفائها ؟
. تعددت الأسباب والاختفاء واحد
. ركز يا مفتح
. أكثر من كده
. عندك سبب محدد
ابتسم المفتح من جديد، وسأل الضابط:
. هل تعرف سبب تسمية الضابط بهذا الاسم ؟
. نعم وحياة أمك !!
. أجبنى إذا كنت تعرف ولا تأخذك العزة بالإثم
. ح تعمل مفتح علىّ يا أعمى
اسود وجه المفتح
. إذن أنت كالعادة لا تدرى.. الضابط ليس من يضبط السارق أو الهارب، الضابط من يضبط نفسه.. وواضح إنك لست بضابط.
احمر وجه الضابط ونفرت عروقه وجمع أصابع يده فى قبضة غاضبة، وهم بأن يدفعها لوجه المفتح، الذى قال له:

. هيا.. اضرب

فوجئ الضابط واضطرب وأدرك أنه وقع فى شرك مع هذا الرجل المشكلة، فاستدار على عجل وتبعه فريق الشرطة والمخبرين.

فى اليوم التالى جاء ضابط آخر يطلب منه الحضور للتعرف على جثة امرأة مشوهة الوجه، ربما كانت جثة محسنة، فقد وصلت إشارة مجهولة بذلك من فاعل خير.. اضطرب المفتح وارتعد فقد ثار بركان بأعماقه.. لم يتصور الخبر، لكنه تماسك وقال:

. يا مندوب الحكومة.. كيف أتعرف عليها والمفتحين بحق وحقيقى لم يستطيعوا التعرف عليها؟

. تعال يا مفتح يمكن يكون لك فايدة

. إذا كنت أنا مش شايفك وأنت زى فلقة القمر

. تبقى شايفنى

. إنت صدقت يا حضرة الأنباشى

. ضابط يا لوح.. غور.. عنده حق اللى عماك.

لم يشعر بأنه أعمى إلا هذه الأيام، ولم يتيقن أن الدنيا معتمة إلا هذه الأيام، بل لم يحس أبدا أن الحياة مقبلة على أيام سوداء وظالمة إلا هذه الأيام، ومع ذلك فهو على ثقة أن الجثة ليست لمحسنة.. إحساسه لم يخنه أبدا.. قالت من قبل إن أهلها يقاطعونها ولم تشرح الأسباب.. لم يدفعه الفضول لحفر البئر.

تنهد بعمق واحتضن بكل جوارحه وأعصابه سيرة محسنة التى ترحم كثيراً على من سَّماها، وكأنه كان يعلم. وهى لا تزال قطعة لحم فى حجم قطة. إنها ستكون فعلا محسنة، تطبق ببساطة وتدفق كل دلالات الكلمة.

تذكر حنانها وأكلها اللذيذ وسؤالها الدائم عنه.. ولول برأسه يميناً ويساراً، كأنه فى حلقة ذكر.. لا تنسوا الفضل بينكم.. لأول مرة دمعت عيناه التى لم تدمع إلا على أمه فقط من دون خلق الله، وكانت حضنه الدائم، وسنده وحماه، وهى التى شحنت قلبه بالجسارة ودفست فيه جمرة نار لا تطفئها المياه.. لكن المياه فيما يبدو. أخيرا. تسربت.. سبحانه علام الغيوب.

عندما سكن عندها.. دخلت عليه وسألته:

. إزى الحال

. فى نعمة ما لها نظير

. أمال فين دولاب هدومك ؟

. لا لزوم له.. توب علىّ وتوب على الوتد

خرجت فاشترت له جلبابا وكوفيه، وشبشباً من جلد متين تتحرك فيه براحتها قدماه الكبيرتان. ابتسمت أعماقه أولا ثم ابتسم جسده ونضحت الابتسامة على شفتيه.

عندما أحضرت له بطة محمرة هجم عليها وهو يقول:

. ونزعنا ما فى صدورهم من غل.

ولما قضى على معظمها. توقف وحمد الله.

قالت:

. كل كمان.

. شبعت.. يجعل بيت المحسنين عمار.

. خللى بالك.. المثل يقول: الأكل على قد المحبة

. إذا كان على محبتى يبقى لازم آكل كل ما على الأرض.

. يعنى مبسوط. لم أكن أتصور إن ربنا راضى عنى لهذه الدرجة.

قامت فحملت إليه الماء الساخن وأخذت تحممه بالليفة وتدعك له كعبيه بالحجر، ثم حلقت ذقنه وعطرته، وأخذت تغنى له أغانى أم كلثوم التى يحبها وهى تقص أظافره، بينما كان يحاول بكل خياله تصور الأحوال فى الجنة بعد يوم الحساب، وانتهى إلى أنها لن تختلف كثيراً عما هو فيه فبعض ما يستمتع به على يدى محسنة لم يخطر على قلب بعض البشر وإذا كانت الجنة كذلك فعلينا أن نبذل الجهد الخرافى لبلوغها، واستقر فى وعيه بشكل غامض، أن الله ربما يذيقه فى الدنيا بعض ما فى الجنة ليدرك روعتها.

شعر أن جسمه بعد عمليات التنظيف والتجميل يكاد يطير، وخامره إحساس إنه جميل.. ثم قال محدثا نفسه التى يحب الحديث إليها:

. يالروعة الدنيا إذا كانت فيها امرأة مخلصة تحبك، ويا لها من صحراء لعينة إذا خلت منها.

محسنة جارته فى السوق والبيت.. الباب أمام الباب. قلبها دائما على قلبه.سمعها دائما معه، وعينها عليه. قبل أن يفكر فى شئ يتمناه يكون عنده.. لا يصدق هذا القدر من الخير الذى يتفجر منها.. ولول برأسه، وتنهد عميقاً لعل الأسى ينصرف ونور الحقيقة يشرق على الدنيا وعليه.

كان يجلس أمام بضاعته بعد فرشتها بحوالى عشر فرشات إلى جانب الخواجة أقدم بائعى السوق.. تحايلت على جارها بائع لوازم النجارة من الشواكيش والمناشير والفارة والكماشة حتى يتبادل مع المفتح مكانيهما ويأتى ليفرش بجوارها حيث تبيع لوازم الخياطة.. الإبر وبكر الخيط والترتر والدبابيس والكباسين وخرج النجف والكستبان والدانتيلا والركامة والأزرار.. كما تبيع المقصات والقصافات والفيونكات.

فوجئ بها تقول له وهو جالس يقرأ القرآن أمام مصائد الفئران التى يبيعها:

. يللا بينا من هنا.

. إيه اللى جرى

لم ترد عليه، مضت يدها فى عجلة تنقل مصائد الفئران وتحطها فى الأجولة الخيش. ندهت على الولد عزمى ابن سعد الكيال، حمّلته جوالاً وسبقته بجوالين، واحد على رأسها والثانى ضمت عليه ذراعها، وانطلقت تشق الجموع بجسارة ولسانها جاهز للسب إذا اقتضى الأمر، وتكتفى مؤقتاً بقولها:

. وسَّع طريق.. وسَّع.

اعتمدت يسراه على عكازه، ومضت يمناه الطليقة تساعده على تفادى الزبائن الذين هم فى نظره عميان إلا عما يودون شراءه.. يسيرون بربع انتباه.

كان المفتح أنصح ولد فى كتاب الشيخ برهان.. يقرأ الشيخ السورة مرة واحدة. يحفظها المفتح فى لحظات ويتلوها

بالتجويد، كأنه منذ سنة لا عمل له إلا قراءتها، وحشو رأسه بها.. أشاع عنه بعض الأولاد . وقد تكون رواية صحيحة . إنه كان يتمتم قبل أن يبدأ الشيخ القراءة.

. سنقرؤك فلا تنس.

ويكررها عدة مرات دون أن يدرك بالطبع معانيها إلا عندما شب عقله وامتلك القدرة على التأمل والتفكير..

تعقبته الآذان وهو يتلو القرآن فى البيوت وعلى المقابر، وفى ذكرى الأربعين والخمسان، والجمع والعيدين، وفى معظم شهور رجب وشعبان ورمضان.. كان ذا صوت رخيم يجيد التنغيم.. يصعد ويهبط بالنبرات فى اقتدار ويبتكر فى تقطيع الكلمات، وفى الضغط على بعضها لفتا للعقول والأفهام، ويبدع فى التواشيح والتسابيح ورفع الأدعية والأذان.. وهكذا أصبح مرتبطا بالمقابر دون الاقتراب من مسجد السيدة عائشة إذ حاربوا اعتلاءه المنبر من امتلأت نفوسهم بالحقد عليه إدراكا لقدرته الوحشية المقتحمة.

كان أخوه قد نزل مصر منذ عشرين عاماً بحثاً عن رزق أكبر بدلاً من الفقر المدقع فى قريتهم التى نسيتها الأيام.. ترك الأسرة الصغيرة تمضغ نبات الأرض الجافة وبين ليلة وضحاها أصبح تاجر حبوب، ولما مات الوالد والوالدة بعده، وتزوجت الأخت، لم يكن من بد أن ينتقل المفتح واسمه إبراهيم للإقامة مع أخيه سنوات إلى أن قضت طعنة نجلاء على حياة أخيه الذى اكتشف إبراهيم أن الأخ عاش على عمليات متواصلة من النصب والسرقة والكذب، ومنها إنه باع بيتهم بالقرية دون علم الشيخ، وأزيح الستار عن الخراب فى القرية والقاهرة معا.

بلغ محسنة أن صاحب العمارة التى يقيم فيها الشيخ قد منحه أسبوعاً واحدا مهلة وبعدها عليه إخلاء الشقة.. قفزت إلى عقلها فكرة، تتقرب بها إلى الله بإكرام عبده التقى الموشك على التشرد.

سحبت ولدها وذهبت إليه:

قالت لولدها: سلم على سيدنا الشيخ.

مد الولد ذو السنين الخمس يده الصغيرة وهو متوجس، فنامت فى كف الشيخ التى فى حجم رأسه.. قال: يا بشرى.. هذا غلام.

سحبه إليه وقبله.. أجلسه فى حجره والولد يقاوم رعباً يستولى عليه.. طلبت إليه أن يتفضل مشكورا بالانتقال إلى بيتها فلديها شقة خالية، واعتذرت لأنها بالدور الثانى وليس الأول.

قال الشيخ: من فَرَّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.

قالت: ح أبعت لك اتنين شبان ينقلوا حاجتك بعد صلاة الجمعة.

قال فى حسم: لا أتحرك إلا بعد الاتفاق على الأجرة.

قالت فى رقة: ما بين الخيرين حساب.

قال: أبدا..

أذعنت وقد أضمرت خيراً: خلاص يا بركة.. ماشى كلامك.

علم أن الغلام اسمه جمعه، ووالده خميس، وقد رحل، تحدثت عنه بالإعجاب محسنة.. لم يكن فى مثله رجل، وقد أقسمت ألا تتزوج من بعده مهما شبع موتاً فلن تمحو ذكراه السنين.

رصت المصائد على الترابيزة وجهزت كرسياً للمفتح، وطلبت له من سيدة العمشة واحد ينسون ولها واحد قرفة، ولمحت المصائد غير مرتبة، قفزت من موضعها لترتبها فى صفوف، وغرست التسعيرة الورقية المكتوب عليها أربع جنيهات للمصيدة، حتى لا يسأله أحد أو يثرثر، من أراد المصيدة دفع الثمن فى صمت ومضى مصحوباً بالسلامة.

تنهدت راضية، فقد ألهمها الله أن تقوم بالواجب إزاء هذا الرجل الوحدانى الذى ابتلته الأيام بالمصائب، وسوف تحصل بوجوده البركة لعلها تحميها وهى تستشعر أنها تمشى على الشوك والخطر.. فأر كبير دائم التجوال بأعماقها يثير القلق،

ربما بسبب القطيعة بينها وبين أخواتها الذين رفضوا زوجها، وعداوتها لزوجة أبيها مفراك الشر وغيرتهم جميعاً من دعم أبيها لها قبل وفاته.. وفوق ذلك ألسنة كثيرة توغر الصدور ضدها فهناك من يكرهون بالمجان.

الولد جمعه إلى جوارها بالسوق مشغول بمص القصب الذى كسرته أمه عقلا صغيرة.. يمتص الرحيق ويدخل معه بأعصابه، ويمر به على شدقه وحلقه حتى يسلمه إلى البلعوم ومنه إلى بطنه، لتستمتع بلذة حلاوته السائلة ويواصل الشفط من العقلة.. قضمة بعد قضمة، يشد السائل الحلو كما يشد مدمنو الشيشة أنفاسها، ويروون صدورهم بالهباب المعشوق.

كلما رأته أمه تذكرت أباه الذى كان يشفط دخان الشيشة شفطاً ويود لو أدخل الخرطوم بالكامل إلى رئتيه حتى قضى عليه عشقه الأسود. عندما نزل ببيت محسنة فوجئ بأن الفئران ترعى فيه بحرية كأنها الملاك، وليس هو أكثر من ضيف عليها، وبالطبع غير مرغوب فيه.. بالليل لا تكف عن الحركة، ولا تترك موضعاً إلا اقتحمته وفتشت فيه بحثاً عما يلائمها من طعام، حتى عِمَّته لم تسلم من العبث وحملات التنقيب، كما أنها عبثت بوجهه وتفحصت معالمه وهو نائم، ونفذت داخل الجلباب، وكم من مرة استيقظ على قرضها سرواله الطويل الضيق!.. كم من مرة سقطت برطمانات وعلب فوق رف عال معلق على الحائط!.. وقد يصحو على جرجرتها مركوبه، وهو فى حجم بطة، أو فى حجم ذكر أرنب كبير لا يكف عن مطاردة الإناث.

عانى منها إذن كل المعاناة، ولم يفلح فى إصابتها إلا واحدا أمسكه وقذفه بشدة فى الحائط، وعثرت عليه محسنة فى الصباح محطماً وغارقاً فى إبريق الماء الكبير، وأكمل كل منهما القصة للآخر.

لا يعرف بالضبط منافذها ولعل لها فى الشقة جحورا. ولما خربت له نومه، حكى للسيدة صاحبة البيت فأكدت له إنه لن يراها بعد الليلة، وأرسلت من يشترى لها عدة كيلو جرامات من

الأسمنت والرمل، ومضت تسد كل جحر، وقبل أن تغادر.. قالت:

. غداك النهارده علينا يا عم الشيخ.

. يا خبر أبيض ليه التعب يا كريمة

. اسمى محسنة

. لكن بفعلك كريمة

أقسم لها أنه رآها فى الحلم قبل أن ينذره صاحب البيت بالطرد. رأى البيت ينهار على السكان وامرأة جميلة تجره من تحت الأنقاض.. سألته عن الأحلام كيف يراها؟ فأكد أنه يراها بمنتهى الوضوح وأنها فى الأغلب ملونة واضطربت عندما قال لها:

. أدعو الله أن أرى السيدة الجميلة التى أنقذتنى فى الحلم والحقيقة.

بعد أيام فوجئ بالفئران تعود، خرج بنفسه فاشترى مصيدة، وعلّق بلسانها قطعة جبن، وقبل منتصف الليل وفى عز العراك الجسدى انطلق باب المصيدة بعنف لينغلق على الفأر وتبدأ جهوده المحمومة للخروج، كما كانت هناك جهود محمومة لفأر آخر يحاول الدخول فى مصيدة أخرى.

برقت الفكرة فى رأسه.. أن يتاجر فى المصايد، يتخصص فيها دون غيرها، ويعرف بها ولا ينافس أحدا، لكم اشتكى من مساحات الوقت الفارغة.. سأل محسنة. أكدت له أنها لم تر أحدا يبيع المصائد. شجعته، وفى اليوم الأول باع عشر مصايد، وفى اليوم الثانى كذلك واستمر الإقبال عليه.

سأله مداعباً الولد عزمى ابن سعد الكيال:

. افرض حد سهّاك وسرق مصيدة وما دفعش

قال على الفور:

. يبقى دخل المصيدة

لم يبد على عزمى إنه فهم إلا بعد أن أفهمه أبوه.

مصيدة بسيطة عبارة عن صندوق من الأسلاك على قاعدة من الصفيح، وباب مشدود بياى إلى لسان تعلق فيه من الداخل

قطعة الجبن أو الخيار أو الطماطم، ومن أعلى يتعلق اللسان بسن صغير فى مقبض الباب تعليقة مرهفة جدا، يكفى الهواء إذا لمس اللسان لينطلق المقبض وينغلق الباب.

. هكذا الحياة.. البيت وصاحبته.. الباعة والسوق.. المقابر والموتى.. الآباء والأبناء.. الزوج والزوجة.. العربة والسائق.. كلها مصايد.. والله فعال لما يريدٍ وهو أحكم الحاكمين.

كان قد فكر فى فتح كتّاب لتعليم الأولاد القرآن، لكن فكرة المصايد غلبت والفضل للفئران التى ألهمته الحل حتى يتحرك ويرى الناس ويروه، ويسمع الأخبار ويتعرف على الحوادث والحكايات.. وليس من المقبول أن تكون حياته جميعها فى المقابر، أما البيع فى السوق فسوف يسمح له أن يكون مع محسنة دائما.. فهى دليله.. يخرجان معا ويرجعان..

. شكرا لك يا رب على هذه البوابة الضخمة التى انفتحت وما أجمل الأمل!

توطدت العلاقة بسرعة غريبة.. فوجئ بها تغسل ملابسه وتنظف له الشقة وتعد له الطعام، واشترت له ملابس داخلية، وجلبابا صوفياً عندما هجم الشتاء، ولما حاول مرة تقبيل يدها، قبلت رأسه، ولما تكررت المحاولة فوجئت به يحوطها بذراعيه وتغيب فى دفء أحضانه وجسدها ينتفض ويستسلم، ربما كان غياب بصره مشجعاً إذ تسلل إليها شعور بأنها تتذوق بعض شهوات الجسد من وراء ستار ولا عين هناك تراها وهى فى أمان حتى لو تعرت أمامه.

جوعان، غاص فى اللحم الجوعان ونهل من آباره. لكنه كان مشدوها باستشعاره أنه يبصر لا الجلد والأعضاء المشبوبة، ولكنه يبصر ما تحتها وما تحت تحتها من الأفران الموارة .

كان يتصور أنه يرى شريان الشهوة كنهر الحمم قادماً من بؤر مجهولة ويشق طريقه مسرعاً ليشعل الحرائق فى كل الأعضاء والعضلات والأعصاب والدماء، وما يلبث هذا النهر أن تلتهمه هوة سحيقة فتهب العواصف ويجتاح الجميع زلزال هائج.

سألته عن اسمه الحقيقى.

قال: لا اسم لى .. سمينى

ثم استدرك:

. لا داعى أن تختارى لى اسم زوجك

ابتسمت واحتجت:

. ليه.. اسمه جميل.

. لأنك لو ناديتنى به وأنت معى فى خلوة أعتبرك خائنة.

. اسمك اللى فى البطاقة.

. لا يهم.. سمينى أنت لإنى اتولدت على ايديك.

سكتت لحظات وإصبعها على فمها تفكر، ثم قالت:

. يوسف.

. ليه اخترت الاسم ده بالذات

. بحبه

. يبقى إنت زليخة.

مضى يعاتب نفسه لأنه استغل وحدة الجارة وغياب الرجل عنها.. وها هى تسميه يوسف، لكن يوسف نبى حماه الله ونجاه ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء وهكذا استعصم يوسف لما رأى برهان ربه، ولم أستعصم، واستحللت ما ليس لى. سامحنى يا رب فقد كان مرادى الشكر فقط على ما بذلته لى..

رده عقله: يوسف أعرض عن هذا واستغفر لذنبك.

قالت نفسه: لقد شغفتنى يا رب حباً، وأنا من صنعك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. إنك الغفور الرحيم. يا رب إن الشرور تملأ كل ركن، والذنوب تلطخ القلوب، فتجاوز عن سيئاتنا.

نهض فتوضأ وصلى وأخرج من تحت وسادته خمسين جنيها ومر على الشحاذين والمعوزين الذين لا يسألون الناس إلحافا، ودعا الله أن يتقبلها عنه وعنها وإن ساور قلبه الشك، فليس بمقدوره أن يحسب الحسبة الإلهية فيما يختص بالغفران.. وإن مال إلى أن الحسنات يذهبن السيئات. ولكنه حسم الأمر قائلا: لا

مفر من الزواج.

شعر بتوازن نسبى فى نفسيته المرتجفة، لا يجب أن يسمح لنفسه وهو حامل القرآن أن يمضى فى عكس اتجاه القرآن وأوامر صاحبه. انحط على الرصيف عندما أخبره شعبان الحانوتى أن زميلهم رضا الحانوتى وجدوه مذبوحاً فى المقابر.. شملته رعدة وخوف من الزمن والأحوال.. لقد حضر زواجه بجارته مودة منذ شهر فقط.. يا حسرة على العباد.. لم يستطع أن يتذكر من قال له:

. الأيام كحصان سريع الركض، تحملنا إلى المعلوم كما تحملنا إلى المجهول، وهى تعرف كيف ترقص، كما تعرف كيف ترفس.

تنهد ونادى ربه فى الظلمات

. لازلت أسأل يا رب، هل هى الآجال أم فعل البشر ؟.. استغفرك يا كريم وأعلم علم اليقين إنها الآجال.

لم تكن فى البيت عندما عزم على أن يبلغها قراره.. بحث عن ولدها فلم يجده.. الشقة عليها قفل.. إذن فقد سافرت إلى أهلها فى شبين.. كم فكر أن يسألها عن التوتر الناشب بينها وبين أهلها، لكنه كان دائما يقول: لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم، لتكن هى الراغبة فى البوح ولا أرغمها عليه.

. هل تنوى يا رب بهذه السرعة أن تسحب عطاياك.

انتبذ له ركنا فى الشارع يقرأ القرآن وظهره إلى المقابر، ثم آب إلى بيته ومضى يصلى ويدعو الله كى يحفظ محسنة من كل شر.. ثلاثة أيام غائبة ما أطولها!.. تغلغل فى نفسه الإحساس بالظلام.

خبطته بشدة طرقات ثقيلة على الباب.. أدرك إنهم الشرطة.. تلا قوله:

. ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه. لن أكتم الحق ولكنى فى رعب.. الموت أرحم من لحظة صادمة فى أعز الناس.

سار معهم إلى الثلاجة، قال:

. دعونى معها وحدى.

قال الضابط: خَلّصٍ.. عارفين اللي بينكم.

مد يده تحت إبطها وتمنى ألاّ يجدها، لكن يده عثرت باللحمية التى تتدلى فى حجم حبة الفول، وتحسس أسفل ظهرها وتعرف على المنطقة الخشنة بمساحة كف.

عندئذ زعق وأطلق آهة طويلة يسيل منها الدم والدموع ونهر عريض من الأوجاع.

. يا سندى ونور عيونى، سيفتح الله نار جهنم على من أنزل بك السوء.

ظل طويلاً يبكى وينتفض.

. لماذا لم تأخذنى أنا؟ ما ذنبها؟.. لا تبقنى يوما بعدها.

عجز أن يوقف مسلسل الانهيار.

عاونوه على الخروج من غرفة الثلاجة.. جلس وهو أسوأ حالا من طفل أبكم ضال.. رأى بكل وضوح خواء ناصعاً يملأ ما بين السماء والأرض، لا أحد على الإطلاق يمشى أو يتحرك أو يطير.. لا حيوان ولا شجر.. تسلل إليه حدس أن العالم انتهى وسينفخ فى الصور.

. يبدو أنى دخلت المصيدة وإنها أغلقت علىّ بإحكام. لابد أن أتزوجها فورا.. قولى ورائى: زوجتك نفسى.. قولى.. قولى..لابد أن تصعدى طاهرة.. قولى.

× بعد شهر تقريباً، ظهر مُلاك جدد للبيت، طلبوا منه سرعة الإخلاء.. تدخل بعض الجيران..قال المُلاّك لأحدهم وتكرر مع الآخرين:

. اضرب الأعمى واكسر عصاه.. ما انتش أحكم من اللى عماه.

ولم يجد المفتح من حل إلا اللجوء إلى المقابر حيث عاش مجاورا للراحلين، ومنهم محسنة التى لم يتوقف حواره معها، وما عاد أحد يناديه كما كانوا ينادونه فقد حرص على ألاّ يرى.

هل لديك القدرة كى تنتشلينا
من الـهــاوية وأوحــال الرمــال
الوهمية
والأيام السكرىَ بالعفن ؟
مــرصـــودة أنت لـنا بحــرا
نغـتـسـل فـيـه من أدران النزق
المادى الممسوس،
وشـــذوذ التـــوق لامـــتـــلاك
الزائل فى نـهـــــارات مكتظة
بالدمامة.

بيت النار

هل الأيام هى المولعة بنصب الفخاخ لأبناء الدنيا التى تتحرك بكثير من النزق فوق أرض زلقة ؟.. راود آدم كثيراً هذا المعنى بشكل غامض، وربما لم يفهمه تماماً.. لام نفسه.. لو تعلم لفهم. وسواء فهم أم لم يفهم، فلابد أن يذهب إلى السوق، وأن يفرش بضاعته فى مكانه الثابت المعروف، فليس من حقه أن يحطها فى مكان آخر، وليس من حقه أن يغير جيرانه ولا الوجوه التى أمامه إلا بالاتفاق.. هذه أعراف السوق التى لا سبيل لتغييرها، وهى فى الوقت ذاته دستوره الذى يحميه ويبقيه قوياً ضد أى سلطة. وبصرف النظر عن النظام فقد تعود أن يذكر نفسه إذا برمت: الزق مطرح ما ترزق.

فكرة واحدة مهيمنة عليه. الدنيا تحاصره فى ركن ضيق جدا وتأمره أن يركض من أجل لقمة العيش، وما عليه إلا الإذعان.. اركض بسرعة.. اركض، إياك أن تتوقف أو تنام.. القطار يدب وراءك وسوف يدهسك، وليس لك من طريق إلا ما بين قضبانه.. لكنه كثيراً ما تمنى أن يباغت الحياة والناس بموقف جديد يغير به قدره.

جهز الترابيزة وغطاها بالملاءة القديمة المخططة بخطوط بنية عريضة.. الملاءة ذاتها لا تتبدل. سحب من أكياسه

البلاستيكية البيضاء التى اقترضها من بائع الأعلاف عرائسه ودُماه.. أسود ونمور. دببه وغزلان. قرود وزراف. كلاب وقطط. جمال وأرانب.. اجتمعت لديه الحيوانات التى تعيش فى الغابة وفى البيوت والشوارع.. أكبرها الأسد الذى يكشر دائما عن أنيابه ويفتح فمه الأحمر عن آخره وينطلق من عينيه الشرر، ويفرد شواربه التى يمكن أن تقف عليها صقور ونسور وقطط، لكنه أبدا لا يخيف، إذ إنه ليس أكثر من دمية، وقد آثر ترك الوحشية والافتراس لسكان الأرض من البشر.

هاهو قد فرش معرضه الكبير للحيوانات الجميلة الأليفة متنوعة الأحجام والألوان، وكلها للكبار والصغار،ألعاب وزينة وهدايا فى أعياد الميلاد وكل المناسبات، وسكة وصال بين الأحبة.

وصل كشرى ضئيل الحجم جار آدم فى البيت والسوق، فهما معاً يسكنان بيت زميلهم شطة.

. صباح الفل.

رد آدم وهو يحاول أن يتخلص من حالته:

. صباح النور.. ناموسيتك كحلى.

قال كشرى وهو يفتح أكياسه الكبيرة البيضاء

. كابوس مقرف بعيد عنك.. مسكنى من أول الليل لآخره.

. تلاقى شطة كان بيشخر.

ضحك كشرى نصف ضحكة، وقال:

. عادته ولا ح يشتريها.

دنا منه آدم وراح يعاونه فى نقل صناديق لعب الكبار.. الطاولة.. الدومينو.. الشطرنج.. علب الكوتشينة.. الشيش الصغيرة التى تزين بيوت الغاوين.

غمز كشرى بعينه لآدم:

. بص على صاحبك

. مين ؟

. ورايا يا سرحان

. آه.. رجب

شده كشرى من كمه وقال:

. تعالى نقفشه.

مضى آدم وراء كشرى بصورة آلية وبدون نفس.. رجب وراء سجادة جاره الكبيرة المتدلية من كمرة حديد، يصب من زجاجة البيرة فى زجاجة دواء الكحة خوفا من زوجته التى ستأتى بعد قليل، ومن المؤكد إنها ستطين عيشته. نصحه الأطباء أن يبتعد تماماً عن البيرة.. كبده تقريباً انتهى بعد أن أصابه التليف، وكبر جدا وهاش. بطنه بالتالى كبرت وأصبح يبدو كالمرأة الحامل فى التاسع.. وجهه ذابل وضامر، لا يتوقف عن شرب البيرة التى عشقها منذ أيام الشباب البعيدة، وتنازل عن كل ملذات الحياة إلاها، وعندما تظهر زوجته يبدأ التمثيلية بالكحة، ثم يتجرع من زجاجة دواءها المزيف.. الغريب أن أباه مثله، ورغم ذلك شكت له زوجة رجب أفعال ابنه.. منعت نفسها من اللطم على خدودها وتمزيق صدر ثوبها كمدا، وهو يقول لها:

. خليه على هواه لما ييجى ديله على قفاه.

عاد آدم عندما لاحظ أن الزبائن بدأت تهل، وتهادى كشرى وهو يصفق عاليا ليحيى النهار والصباح الجميل، متمنياً أن يكون اليوم نادى، هو نفسه ضحك على نفسه عندما تذكر وصف آدم له، بأنه: زى الضفدع حس عالى وجسم مفيش.

خطف آدم نظرة إلى سطح مودّة. تعودت أن تصعد إليه إذا الشمس سطعت.. قال لنفسه:

. طلعت الشمس يا مودة وانت فين؟

سأله كشرى:

. مش ح تفطر.. أجيب لك طبق كشرى؟.

. ماليش نفس.

. غير مية الشيشة.. وخليك حلو.. المسألة فات عليها شهور.

قال آدم وهو شارد:

. رحت بعيد

تنهد، ثم قال ليغير الموضوع:

. إنت مش قلت ح تبطل الكشرى ده، هو إدمان؟.. كرهناه عشان خاطرك.

قال كشرى وهو يتلوى تعبيراً عن خبرته:

. ايش فهمك إنت فى الأكل.

أخذ آدم الكلام على محمل آخر.. فاسود وجهه غضباً.. أراد أن يخرج من الحالة.. هربت عيونه إلى سطح مودة، حاول أن يدندن مع سيد درويش:

. طلعت يا محلى نورها شمس الشموسة.. يللا بنا نملا ونحلب.. لبن الجاموسة

وأكمل:

. آه من عمايلك يا جا.. يا بقرة.

تنهد:

. أشكى لمين وكل الناس مجاريح.

حاول أن يدندن فلم تتحرك أحبال صوته. قمعتها مشاعره الأسيانة.. كادت الدموع تطفر من عينيه.. اختبأ بنظراته فى حيواناته المستكينة، المحشوة بالقش وفتافيت الملابس القديمة والقصاقيص.. حيوانات هشة ليس لها إلا شكل جميل.

. من برة هلا هلا.. ومن جوه يعلم الله.

كانت رأسه كغرفة العمليات، وهو نفسه كان ممددا على الطاولة، وهو نفسه الطبيب الذى يقوم بإجراء العمليات الجراحية لعقله وقلبه، وكالعادة فشلت وساءت حالة العضوين وأعضاء أخرى، وكان الأطباء المساعدون والممرضات كالعادة يضحكون مما يجرى ويدهشون.. وكان المارة كذلك. هل تراها جوارحه خدعته وغررت به حين ألقته على حافة المتعة والهاوية؟.. مودَّة.. ذلك الكائن الجميل الذى حلم به طويلا، وكانت بكل نظرة من نظراتها تصنع شموساً وغيوماً وأنهاراً من عسل، ويظل فى أحضان الحلم اللذيذ بالليل، ويقدم القرابين بالنهار حتى نالها، وعندما امتطى الفرسة العفية تمدد تحت أقدامها على الفراش وانسحبت روحه ورغبته، وكلما صهلت تراجع.. أيام وشهور شهدت ذهوله.. مصيبة

المصائب سابت الناس كلها وحطت عليه.. الشياطين اختارته لأقسى تجارب الإنسان.. الجمال والجسم الفائر والنار والغرام يملأ القلب، لكن مفتاح البوابة سقط فى بئر مسحور.. لابد هناك من فعل به هذا.. عمل له عملا يربطه.

قال لها: اكفى على الخبر ماجور لحد ما ربنا يجيب الفرج.

قالت ببطء وهى تتنهد وتمط شفتيها ضجرا:

. سرك فى بير.

لم يستطع أمهر السحرة وحلالين العقد، فك الربط المتين.. زار أولياء الله الصالحين ولجأ إلى المشعوذين والدجالين ولبس الأحجبة واشترى من الخواجة جاره فى السوق مسجلا حشاه بشريط الطبلاوى لا يقرأ فيه إلا سورة البقرة ليلا ونهارا لعلها تفك النحس، لكن الفرسة كانت تصهل باستمرار والبقرة تخور.. صبر الفرسة مثل زور الحمامة، وكل الطرق كانت تؤدى إلى الصمت المشوب بالانكسار والحسرة.

أخرجه كشرى من حواره اليومى الملتبس حول المصير البشع الذى آل إليه. دعاه للإفطار حيث يتجمع عدد من الباعة عند المعلمة توحة بائعة الكوارع والكرشة والطحال وأحشاء البهائم.

أعدت توحة صينية فول مدمس بالطحينة والشطة والزيت الحار والكمون والليمون ومعها البصل. أرسلت من اشترى لها من الطابونة ثلاثين رغيفاً ربما تكفى الجميع، ومضت تدعو كل من له رغبة من الباعة والزبائن.

. تعال أجبر الزاد.. لقمة هنية تكفى ميه.. يللا يا فندى يللا يا بيه بصلة المحب خروف.

كانت تدعو للطعام كأنها تدعو المشترين لبضاعتها وكأنهم سيدفعون الكثير من المال.. الزبائن يمرون بها ويدهشون من تصرفها، الغريبة إنها لم تكن تأكل بانتظام، فهى تلتقط لقمة مقابل عشرة لكل واحد من الرجال.. مشغولة بالكلام، حتى رأت ابنتها تأتى متهادية فى كسل فاستلمتها بالسخرية.

. على ما تتكحل العمشة يكون السوق خرب.

. مالوش لازمة يا أمه.

. له ونص يا ضنايا.. ورانا أكل عيش.

. عيش وفول يا معلمة.

ابتسمت نصف ابتسامة، وقالت:

. سايبانى لوحدى يا بت.. خدى.. عملت لك شاندوتش.

تمد يدها وتقبض على الساندويتش،.. تقضم منه وسرعان ما تنطق فى دلال.

. ده ملهلب يا أمه.

. كلى يا بنت علشان تنسندى.. اتفضل يا فندى.. اتفضل يا بيه اجبر الزاد.

شطة يقول لها ضاحكاً: زاد إيه يا توحة.. الصينية فضيت .

ترد عليه: بالهنا والشفا.. مطرح ما يسرى يمرى.

نهض آدم. قبَّل كفه ظهرا لبطن وحمد الله.. عاد إلى فراشه كأنه كان على موعد مع رزقه.. باع قردا وغزالة.. ثم نمرا ودبا.

ها هو شاربه ينبت من جديد وكان قد حلقه..

. إيه فايدة الشارب المبروم والنخيل مايل.

خطف نظرة لسطوح مودة.. فى اللحظة ذاتها كانت تظهر تربيعة مودة الحمراء المزينة بالترتر تسبقها وهى تصعد على السلم الداخلى الخشب إلى السطح.. فردت طولها ومالت قليلاً نحو الشارع:

. بِسْ.. بِسْ

بسبست لجابر بائع الكولونيا والكريمات والشامبوات المجاور لتوحة.. لما رفع رأسه ناحيتها.. قالت:

. ارمى لى حُق كريم.

رمى الحُق وهو يقول:

. كده وصلك تلاتة

قالت له بدلال وتخميسة من كفها:

. كُبَّة.

جلست فى الشمس أمام آدم. عَّرت ذراعيها وساقيها وسحبت

التربيعة ونترت شعرها الأسود الكثيف الذى كم شمه وشرب من عبقه ودفس فيه أمانيه، ربما مع الأيام تزهر.. انطلقت غيطان شعرها فرشت على ظهرها. وتلفت الشبان من الباعة والمارة.. أغرقها مطر النظرات التى تعودت عشق الجمال حتى لو شبعانة. شربت روحها من العيون رضا وغروراً.. ولم تمنع نفسها أن تقول:

. شاطرين بس ياكلونى بعنيهم.

مضت بالسبابة والوسطى بعد أن لمت على بعضها باقى أصابعها، تحتفن من علبة الكريم وتمسد بحنان لحمها الأبيض.. بدأت بساقيها، وعينا آدم مع الكريم تجرى على قوالب النور والرخام والزيد المخزن فى بطن الساق.. طلع معها على الذراعين، وقبَّل بعينيه الحنان اللذيذ ونعومة الحرير فى اللحم الضانى.

عرف كل هذه الكنوز ورآها، فجن جنونه، ونصيبه لم يسمح له أن يلمسها لمس المحروم، وفرق السماء والأرض بين لمس الشبعان ولمس المحروم، وقد حسبته الأقدار على الشبعانين.

الذراعان والساقان تشرق عليها الشمس بزيادة، وعيون المحبين يجننها الشوق بزيادة، وقلب آدم فاق الكل وزيادة.

كاد يلطم خدوده من جديد وينطح رأسه فى أصلب الحيطان بوصفه سيد المحرومين وإمام المعذبين فى الأرض، عندما علم إنها تزوجت غيره بعد أن طلقها.. لم تصبر إلا ساعات الليل.

. نفضتنى نفضة سوده بنت الكلب. استعجلت قبل ما يتحقق الأمل.. وكان يدوب بيسأل على العنوان.

احتفلت بهدوء شديد بجوازها من جندى من جنود الأمن المركزى.. لم يستمر الزواج أكثر من شهر.. أجبرته أن يطلقها واختفى تماماً ولا يعرف عنه أحد شيئا، ولا حتى ظهر من جديد خالها الذى زوجها له.

بعد شهر لم تظهر كعادتها على السطح وقيل سافرت إلى بهنسا لتتزوج من أحد أقاربها الأغنياء، وبعد شهرين عادت وحدها ولزمت الدار، وشوهدت كثيراً على سطحها.. ترعى دواجنها وتركض وراءها وتتناول طعامها وتنشر غسيلها وتجهز الخضراوات

للطهى وتحمص جسمها بالشمس وتعرف أخبار الدنيا.

وكم رأت من برجها العالى معارك وغراميات وصفقات وسرقة وخطف!.. ورأت قتلا أحيانا ولواط عيال، وموتى يعبرون إلى المقابر محمولين على المحفات والرجال وراءهم يدًعون الحزن، والنساء تولول مؤقتاً حتى يوارى الرجال موتاهن تحت الثرى.

لما طردت آدم عاد للسكن مع شطة وفرقته العشرة. لا يدرى السر فى أنه يشك فى أحدهم.. ذلك الشاب الغامض واسمه عاصى.. لوح شطة بأنه من المحتمل يكون وراء ما يجرى.. فكر آدم أن يخنقه وهو نائم، لكن قلبه لم يطاوعه، فليس بينهما لا محبة ولا عداوة.. قال لنفسه:

. حل مشكلتك بنفسك ولا تحملها لغيرك.لم يتمكن من تنفيذ خطة جهنمية دعاه إليها شطة، بأن يفرغ له الشقة من سكانها ويستدرج له فتاة لتجربة عدته، فلم تفرغ الشقة.. دائما هناك الداخل والخارج والنائم والصاحى.. القريب والغريب، ودائما هناك أهالى قدموا لزيارة أولادهم.

تمكن آدم من تنفيذ نفس الفكرة فى إحدى المقابر وجاءت النتائج مبشرة جداً، وكرر التجربة فى مقبرة أخرى، فقد ساورته الظنون باحتمال وجود سر فى المقبرة الأولى أعانه على تحقيق المراد، وقد لا يتحقق المراد ذاته فى مقبرة أخرى، لكن التوفيق حالفه فى كل المقابر التى استخدمت كمعامل لإجراء التجربة التاريخية والمصيرية، برغم مطاردة المقرئ الأعمى الشهير بالمفتح الذى يدهش آدم بإحساسه، وكيف أنه يظهر له فى كل مرة، ويشعر به ويتعقبه كأنه مكلف بمراقبته، وقد سمعه عدة مرات وهو يقول:

. وحياة أمك يا نتن لامسكك وساعتها شوف إيه ح يجرالك.. ولا عزرائيل نفسه ح ينقذك منى.

بعد أن فتح عشر بطيخات نسائية وكلها كانت حمراء ولذيذة عزم ألاًّ يتزوج إلا مودة..

. عهدٍ علىّ وعمرى ما المس غيرك بعد اليوم.. سامحينى أنا

مش خاين بس كان لازم أتأكد أنى سليم.

مضى يرقص ويصفق ويغنى : أنا سليم.. أنا سليم.

ارتعد عندما تمنى أن يسكن فى المقابر لكى يفلح فى الزواج والمتعة وإنجاب الأولاد.

عندما قرر الذهاب ليطلب إليها قبوله زوجاً من جديد فالحال غير الحال. فوجئ بالخبر الملعون.. لقد تزوجت فى الليلة السابقة من رضا الحانوتى صديق المفتح.

. مسكينة يا مودة.. وصل بك الحال تتجوزى رجل حانوتى وأعرج وأعور وسكرى.. ياه.. لو صبر القاتل على المقتول ليلة واحدة كنا بقينا مع بعض.. بس برضه مش ح أتجوز غيرك.

ثلاثة من قبل وهذا هو الرابع، إما التواصل ثم الاستمرار والاستقرار، أو السير على الطريق ذاته ومن ثم الانفصال، وساعتها لا مفر من الاعتراف بأن هناك خللا لدى مودة.. مودة الأنثى العاتية المتمتعة بأكثر مما هو متاح لامرأة جميلة وشهية. تساءل الجميع حتى الآن هل يمكن أن يكون هناك عمل معمول لها يعجز معه الرجال من دك حصونها المنيعة.

عبثت به الهواجس التى زينت له الرعب من الحانوتى فربما يضع الله سره فى أضعف خلقه، ويستطيع هذا المخلوق الشائه ذو الأنف الكبير والسنام على ظهره أن يبلغ الأعماق التى لم يمس سطوحها الآخرون.. تقلب على أشواك شهوته وكرامته.. لم تعد هناك مشكلة أمامه حتى زواجها من الحانوتى، وليكن ما يكون.. العمر واحد والرب واحد. لا .. لن تكون مودة لأحد غير آدم.

سيطرت عليه فكرة أن يعرف بالضبط خط سير الحانوتى.. متى يخرج ومتى يدخل؟ وكيف يقضى وقته إذا توقف عزرائيل عن قبض الأرواح؟.

مع حلول الظلام وبعد أن ينتهى السوق يرحل معظم الباعة ويفكون الفرش، من يملك الأكشاك فإنه يسهر ويفتح طوال الأسبوع وليس كالباعة الوافدين يومى الجمعة والأحد.

بقى آدم بصحبة مرسى الذى يعرض فى كشكه أشرطة الأغانى

والفيديو لمختلف المطربين وكذلك المسلسلات التليفزيونية إلى أن أغلق فى نحو العاشرة، وانتقل للسهر فى مقهى القدس المجاور حتى الثانية عشرة عندما لمح الحانوتى السمين عائدا يتطوح ويتمتم بكلمات مضطربة، فيها خليط من حواراته مع أصدقائه مع بعض عبارات مسبوكة من خطبه على الموتى والدعاء لهم بالمغفرة مع نكت وبعض العبارات المشهورة عن كبار المسئولين.. ثم ضحك وتمايل وتخبط وتعثر واختتمها بقوله: يكون فى علمكم أنا سيد الرجالة.. آه.

سهر آدم فى الليلة الثانية والثالثة، ورأى بالضبط ما رآه فى الأولى ولاحظ أن غرفة مودة فى الدور الثانى ينطفئ نورها حوالى الحادية عشرة.. ظل ثلاث ليال دون نوم.. يتقلب ويفكر ويحدق فى السقف على نور سهراية ومعه فى الحجرة أربعة، واحد منهم فقط هو الذى تذمر كثيراً من حركة آدم المتوالية وطقطقة السرير الخشبى العجوز.

كانت مودة تشغل قلبه ثم شغلت عقله، وتسلل فيروسها إلى روحه.. فكل صوت نسائى يمكن أن يكون صوتها، والقادمة من بعيد قد تكون هى، وأى حديث عن امرأة جميلة فى التليفزيون أو فى الأغانى إنما يقصدها.. تسلل فيروسها إلى عينيه وأعصابه وفمه.. بات يتصور أن أى حلو يأكله هو شفتاها، وقد تخيل ذلك كلما تذوق الجيلاتى.. وأى صوت جميل بالتأكيد صوتها وأى رائحة عطرة تفوح دليل على أنها فى المكان أو قريبة.. هي الدنيا والحياة والجمال والدفء والحنان.. هى الحب والأهل والأمل.. هى الحكومة والجيران والصداقة والنزهة والسياسة والمزاج والمستقبل.. هى المصير.

قرر أن يمضى فى سكته حتى لو دخل السجن وقضى عمره كله.. فيه لن يسمح لنفسه أن يتزوج غيرها، ولا لغيره أن يتزوجها.. انتهى.

فى الحادية عشرة والنصف بعد انطفاء نور غرفتها.. مضى إلى باب البيت.. لمسه لمسا هيناً لعله ينفتح دون ضجة. لم يرحب به

الباب. حاول بقوة.. كان مغلقاً بإحكام.. لم يحسب حساباً لذلك، كان والد مودة ومنذ سنوات يترك الباب مفتوحاً حتى إذا جاء ولده الغائب منذ سنين بالعراق فى أى ساعة استطاع الدخول.

دار حول البيت من الخلف.. كانت بعد بيتين هناك شجرة. تسلقها فى يسر وقفز إلى سطح أقرب بيت، وكان مكونا من طابقين مثل بيت مودة وبينهما بيت من ثلاثة طوابق.. تعلق بأظافره ويديه وقدميه فى الجدار، وجرب عددا من المحاولات حتى صعد ونزل فوق سطح مودة، ونزل على السلم الخشبى المتنقل ودفع بابها فلم ينفتح.. نقر نقرا هينا، فلم تفتح النائمة، فكر أن يطرق بشدة، خاف أن يسمع أهلها فى الدور الأول، وإذا صحت ربما تصرخ، لا يأمن رد فعلها وقد خطط أن تجده أمامها مباشرة فلا تملك السبيل للخلاص.

صعد إلى السطح، وقبع على حرف بير السلم ليفكر فى الأبواب المغلقة والطرق المسدودة والفوران الذى يغلى بداخله والإصرار الغريب على عدم التراجع.. قام وجلس. دار حول نفسه وهو يحرص ألاَّ يلمس أرضية السطح.. يود أن يدخن سيجارة. لن يستطيع تحقيق هذه الرغبة حتى لا ينكشف وجوده المشبوه. غير خطته. لا سبيل إلا انتظار الحانوتى.. اطمأن على ما فى جيبه.. كان يرتعد بشكل مطرد.. ليس من البرد ولكن مما يمور بأعماقه.. قلبه يرتجف أيضاً ويواصل القرع على ضلوعه، كأنه يود الخروج.. عقله بركان ملتهب.. أعصابه متوترة كأنه مطارد بقوة لا قبل له بها ونجاته لا سبيل إليها إلا بعبور فضاء بين جبلين على حبل مهترئ.. لا تكاد تحمله قدماه، ولا تستقر على الأرض مؤخرته.. بدا من هول ما يزلزله كأنه يعذب صعقاً بالكهرباء.

تناهى إليه خبط باب الشارع وصعود الجسم الثقيل، قدما بعد قدم والخبط على درجات السلم، والكلمات المضطربة والمختلطة التى تواصلت حتى بعد دخوله الدار.

تأهب آدم وتعالى نبض قلبه وهو يخرج من جيبه زجاجة،

فتحها وصب نصفها على منديل. ما إن أدخل الحانوتى مفتاحه فى الباب حتى أسرع آدم بالهبوط كقط على السلم الخشبى النقال.. صبر على رضا حتى دخل محشورا بين الضلفتين وقبل أن يرد الباب خلفه كان آدم قد ثنى ساعده الأيسر بسرعة تحت رقبة الرجل السمين وضغط بمنتهى القوة عليها، وكتمت يده اليمنى بالمنديل على فمه وأنفه.. تقلب الحانوتى وتلوى وحاول أن يزعق أو يتأوه.. حاول أن يدفع ذراع آدم.. حاول أن يرده بظهره العريض إلى الحائط ويضغط، وقد أفلح، لكنه بدأ يتهاوى أسرع بكثير من جبل جليد هجمت عليه فجأة حرارة شمس قاسية.

أصبح عبئا ثقيلا على صدر آدم فسمح له بالهبوط تدريجياً ليستقر مكوماً على الأرض، شاغلا معظم مساحة الصالة أمام عدد من كراسى الأنتريه القديم الذى مازال كما كان منذ عهد آدم وقد كشفه نور السهراية الشحيح.

احتاج أن يرتاح قليلاً وقد أحس أنه قطع نصف الطريق، ثم راجع نفسه مؤكدا إنه قطع الثلث فقط أو حتى الربع، لأن الموقف المحورى أو اللقاء المصيرى لم يتم بعد.. ومودة ليست سهلة.. إنها قوية جسداً وروحاً.. لا تسمح لأحد أن يلوى ذراعها ويرغمها على ما لا ترضاه.. فرسة عنيدة ولها جبروت وكرامة.

رأى ألاّ يستخدم نصف الزجاجة الثانى، لكنها فى جيبه إذا لزم الأمر وكذلك المنديل والمطواه.. الأعمال العظيمة ليست سهلة أو فى متناول كل من يفكر فيها.. المشروعات الكبرى تتطلب فكراً غير تقليدى وغير طبيعى.. لابد من الجنون والابتكار.. وهذا المشروع بطله هذه الزجاجة.. تحسس جيبه ليطمئن عليها. وتذكر مندهشاً إنها فكرة عاصى.. ذلك الشاب الغامض الذى يقيم معهم كالشبح.. قال له. كاذبا بالطبع. إنه يريد أن يحصل على قرض من أمه وزوجها مقيم دائما فى البيت لا يبرحه، ومستعد يشوف العمى ولا يشوف آدم، ولن يمكنه من نيل مراده.. دله عاصى الشبح على هذه الزجاجة المخدرة.

. كبر فى نظرى الولد ومن هنا ورايح لن أسمح لأحد أن يمسه

بكلمة.

لم ينس إغلاق باب الشقة من الداخل. مضى إلى حجرة النوم.. الجميلة النائمة عارية الفخذ الأيسر.. تعرف على السرير والدولاب.. النور يتسرب بشحوب برتقالى من النافذة ونور هامس ومختنق من سهراية الصالة.. أغلق باب الغرفة ثم تنهد من جديد لحشد العزم والإقدام على أهم مرحلة.. إما النصر والحياة السعيدة، أو الفضيحة والسجن، والموت أرحم.. هكذا فكر، لكنه قبل أن يبدأ الخطوة الأولى.. تصور أن النتائج يمكن أن تختلط، فليس شرطاً أن يعقب النصر سعادة.. لا يضمن تصرفات مودة، لقد خلقت من جنون.. حسم أمره بتأجيل النتائج.. التفكير إذا طال توقف العمل واقترب الفشل.

صعد إلى السرير بحذر الثعلب.. كان لابد أن يقدم القرابين ويعتذر.. انحنى على الفخذ المضئ فى شموخ.. فقبله بحنان ولهفة، كأنه يقول له:

. حقك علىّ.

أمسك بركبتها اليسرى المائلة قليلا نحو اليمنى فنحاها برقة نحو اليسار، مضى بين الفخذين يحل ويفك ويخلع ويسلك بعد أن جهز نفسه وكشف نصفه السفلى، ثم مضى فى ثقة نحو مفترق الطرق السحرى بين الجنة والنار.. فوجئ بها تقول فى غبشة النوم:

. مالوش لازمة اللى بتعمله.. عايزة أنام.. ريحة البوظة مقرفة.

شجعه الكلام الكاشف على أن يتقدم سعيدا باكتمال سلامته.. يفتح الأبواب الموصدة بحنان وحذر، ويربت برقة على قبة الكنز، وتمنى أن يقبلها مرات ومرات والنهل من الرضاب.. لكن الفرصة غير سانحة.. الأفضل سرعة اجتياز البوابة والنفاذ مباشرة إلى السرداب.

تعثر قليلاً وفتش وعالج، وفوجئ بها تبتسم نصف ابتسامة ساخرة ملفوفة بليل النعاس. اضطرب خشية أن تستيقظ فتهدم المشروع أو تنسحب الطاقة الحساسة المتوترة كما كان يحدث فى

الماضى، إلى أن وجد نفسه يتسلل مهيباً إلى أعماق المغارة الدافئة وإذا بجنباتها تتسع له بالكاد وتحضنه.

فزت مودة من نومها مفتوحة العينين ناهضة نصف نهضة.. اضطربت تحته، وقبل أن تفتح فمها لتصرخ كانت المطواة فى عنقها.. ظلت مفتوحة العينين تطلق الأسئلة، بينما كان يهرس أسنانه إعلاناً عن الغضب واعتزام الإقدام على قتلها إذا تنفست.. أدركت أنه ليس آدم الأول.

أخيراً نطقت وهى تقدحه بشرر عينيها:

. إنت مجنون.. إبعد أحسن أوديك فى ستين داهية.

قال بهدوء وحسم:

. إنت مراتى فى السما والأرض.. لن يلمسك غيرى ولو ذبحتك وذبحته، اهدى خالص.

تهاوى جسدها مستسلماً لا يرى مبرراً للمقاومة.. اندهش لأن أعصابه المتوترة ورعبه الذى يخبط قلبه ويزلزل روحه من مودة والفضيحة والسجن وغضب الناس واستعراضهم للثورة من أجل الشرف.. كل هذا لم يؤثر على آلته التى صمدت فى وجه الأعاصير، وظلت متمسكة بموقعها المتقدم على جبهة الأعداء الأحباب وبعد أن توقف عن تهديده، أولى شهوته التركيز الكافى حتى تحقق أهدافها من أجل المحبوبة الغالية.

حط عليها يقبل خديها ورأسها وأنفها وشفتيها وعنقها العرم ثم بدأ يهبط بالقبل إلى ثدييها الذين مزق من حولهما صدر الثوب، كأن الثوب كان يتأهب لذلك دون مقاومة أو عصيان، ومع ذلك ظلت المطواة فى يده جاهزة لأى غدر.

تدريجيا شاركته لهفته وردت على أشواقه بأفضل منها، تدريجيا أصبح لا يعنيها ما الذى حدث وما الذى يمكن أن يحدث وأين هى وكيف عبر كل هذه البوابات وكيف انتقل من السطح إلى العمق؟.. كيف دخل وكيف فتح؟.. ومن هذا الذى يرافقها الفراش الصابر والمعذب.. هل تراه الزوج الأول وماذا حدث له وماذا حدث للدنيا؟ مطر من الأسئلة يهطل دون أن يبلل أو

يهدم ولكنه لا شك يروى ظمأ كل الأرض.

أخيرا.. همد وتمدد فوقها.. عانقها وعانقته.. لم يتوقف عن تقبيلها والنهل من آبارها المتدفقة برحيق العسل. دفس رأسه فى شعرها واستنشق رائحة الأعشاب البرية الجافة.. مزيج من روائح النعناع والريحان والتمر حنة والقرفة والمسك.. أيقن إنها رائحة جسدها الذى انزرع طويلاً فى الصحراء حتى تصبَّر وتجفف.

بعد أن عرفها بنفسه كاشفاً عن شخصية جديدة وباهرة.. قالت له:

. امشى بسرعة. رضا زمانه جى. مش عايزة حد يشوفك.

. ماشى كلامك. بس ولا كلمة لمخلوق لحد ما نتصرف.

ظلت متعلقة به رغم إلحاحها عليه أن يغادرها على عجل، وظلا على عناق والتحام واشتباك بالقبل حتى بعد باب الشقة وعلى السلالم وحتى باب الشارع، ثم عبرت فوق الجثة المكومة فى الصالة ودخلت وتمددت فى سريرها المضىء بالفرح والنشوة إلى أن احتواها بحر من النوم العميق.

امتلأت أحاسيس آدم بوعى جنسى جديد، لم يدركه على وجهه الصحيح والعميق عندما كان زوجها. لم تبلغ به الشهوة سابقاً كل هذا الجمال وتلك اللذائذ، بل لم تكن ثمة رغبة إلا ما ينتج عن ملامسة الحرير والقطيفة أو النوم على فراش طرى مريح.. حالة غريبة ومدهشة تتلبسه وتفتح له آفاقاً جديدة فى الجسد والنفس على السواء.. تنهد وهو يقول فى بهجة أسطورية:

. دار الحجر ورجع مكانه.

أحس إن مودة آلة موسيقية وأن الأنغام لن تخرج منها دون أصابعه.. كن شهيا ترى الوجود شهيا.. كن جاهزا بأدواتك لا بأحلامك ولن ينفعك الكلام.

لم تعد طرية وناعمة فقط بل قادرة على أن تسكره.. أدرك الآن فقط السر فى أن الكهرباء تحتاج إلى سلك أرضى وسلك فضائى.. كان يريدها دائما زوجة جميلة وحنون وماهرة وشجاعة، أما بعد اكتشاف اللذة الجسدية التى ضربته فى نافوخه وفى كل كيانه

فإنه لن يتركها ثانية واحدة تغيب عن عينيه أو عن أحضانه المحرومة، ولو فقد عقله وامتشق سيفاً ومضى يقطع الرءوس التى تحول بينه وبينها. تذكر الآن فقط كلام المفتح عند تقديم القرآن للنساء على كل الشهوات التى زينها للناس.

مضى عقله يلعب مع روحه ويتدافعان ويمرحان ويفرحان بالرزق الجديد الذى سيغمرهما حتى نهاية العمر.. مضى يركض ويرقص كطفل فى يوم عيد.. سعيد بجلبابه الجديد وقد امتلأت جيوبه بالنقود.

فى اليوم التالى طلبت مودة من رضا الطلاق فشخر لها وأبى.كلمت أباها فسمع منه ما لا يرضيه. بلغ ذلك آدم فأسقط فى يده.. كان كسمكة تشوى.. لم يتوقف عقله دقيقة واحدة عن التفكير والبحث ورسم الخطط حتى منتصف الليل حين استقر تماماً على سبيل الخلاص.

مضى إلى جلسة البوظة واندفع وهو يمسح دموعه نحو رضا:

. أنا وقعت من السما وأنت استلقتنى

رفع الحانوتى عينه الوحيدة ليرى محدثه، ثم ضحك وقال:

. كويس إن مش أنا اللى وقعت.. كنت ح تستلقانى ازاى.

. ابن عمى مات دلوقتى وهو غريب وعايزين نتاويه فى حته.

. خليه للصبح.

مد يده بخمسين جنيها

. دلوقتى أرجوك.

. كمان خمسين.

. بعد الدفن.

تدحرج رضا أمام آدم الذى كان يعيد ترتيب خطته ويطمئن على سلامتها.. مال رضا على سبيل فأخذ يغرف الماء ويضرب وجهه حتى وعى ما حوله.. تابع سيره مخترقاً الأزقة التى تفصل بين المقابر حتى توقف عند إحداها بينما كان آدم يواصل تقييم الخطة وتحديد الوسيلة واللحظة الفارقة، ولما انحنى الحانوتى ليفتح قفل المقبرة المعلق ببابها المنخفض، حط عليه آدم ومر

ضاغطاً بمطواته على رقبته حتى المنتصف، وسقط الحانوتى مرتطماً برأسه فى الباب الحديدى للمقبرة.. مسح آدم فى جلباب الميت مطواته، وألهمه تفكيره الشيطانى أن يفتح المقبرة ويلقى فيها المطواة، لكنه ارتعد لذلك الخاطر الملعون، وأسقطها فى صندوق قمامة كبير على بعد حوالى مائتى متر دافساً إياها فى أعماق كرنبة ذابلة.

أسرع إلى بيته وارتمى على سريره فى أسوأ حالاته، رعباً وعجزاً وتوتراً، وشرع يسأل ذاكرته عن سلامة الطريق وخلوه من كل أثر يدل عليه.. كان عليه أن يتظاهر بالنوم، كلما صدرت حركة من أحد سكان الغرفة وأن يحبك النوم بالغطيط الكاذب.

عاد يبحث فيما جرى عن آثار أقدامه وأياديه.. عن كلامه مع من لقيهم، وما تبقى من أنفاسه أو رائحته، وما علق بملابسه أو حذائه، ثم دافع عن نفسه.. ماذا كان على أن أفعل وقد رفض تطليقها وأنا.. أنا كان يجب أن أنالها ؟.. هى لى وأنا لها.. ياه.. كم فرحت بى وفرحت بها.. وتكرر على خاطره مشهدهما وهو يغادر بيتها مصحوباً بها وهى لا تفلته وتكاد تطلب منه أن يواقعها على كل درجة سلم.. لا.. كان لابد أن يحدث هذا أو أنتحر.. مودة هى الحياة.. وأنا بشر.. بشر يا ناس بشر.

مع طلعتك تزهر فى الأرواح
شمس الرب.
فاجمعينا على الجمال
والحق ورُدّينا إلى الإنسان..
الإنسان..
وابقى لنا الغواية والولع
والتطلع فى عين الشمس..
لعلها تولد فينا بعض
الحقيقة.

ندى الورد

أصرت على الذهاب إلى السوق رغم الحمل الكبير الذى تنوء به.

طلبت من جارها سائق الميكروباس أن ينقلها والبضاعة إلى سوق الجمعة وهو فى طريقه إلى الموقف.. لم يتأخر كالعادة جابر.. شاب يتمتع بنخوة، كما أنه لا ينسى توصيات زوجته المتكررة للاهتمام بصديقتها وردة.

السوق يشغلها والبضاعة وأختها الصغيرة التى ذهبت مبكراً إلى المدرسة، وأمها لا تزال فى ذاكرتها رغم رحيلها منذ شهور وبطنها التى تثقل عليها وتؤلم ظهرها، والنشع الذى ظهر بقسوة فى جدران بيتها، لكن ذلك جميعه لا يشغلها عن صلاح. الحلم الجميل الذى تحول إلى كابوس بسبب الغياب المفاجئ وانعدام أى معلومة تطمئن البال المشغول وتشير ولو من بعيد على ملامح الطريق، إذا كان هناك طريق.

الوحيدة التى تعرف سرها جارتها مديحة زوجة جابر السائق.. ومن كرم ربنا وفاة أمها قبل أن تعرف شيئا عن حملها.. كانت فى الثالث، وقضت ليالى طويلة ساهرة تعد وترتب الخطة التى ترسمها لنقل الخبر المشئوم إلى أمها.. أمها تعانى من متاعب فى القلب وتحتاج إلى تغيير صمامين وعضلة القلب ذاتها

ضعيفة جدا، لا يمكن أن تحتمل خبرا كهذا.. من النادر أن يتحمله أقوى الرجال.. لو لم يتقدم صلاح بسرعة فهى مصيبة بكل المقاييس.

أمها عرفت صلاح وارتاحت إليه.. أدركت أنه شاب محترم.. وموثوق به وتأكدت من أنه يحب ابنتها.. لكنها لم تعلم بما جرى بينهما.

. ربنا يا بنتى يجعل لك معاه نصيب.

كانت يوم رحلت الأم فجأة تبكى وتلطم، لها ولأمها.. دموعها السيالة لم تتوقف أسفاً على نفسها التى غافلها الحب واستدرجها لمقتل، وها هو الحضن الوحيد يرحل.. الدنيا لابد سترحل معها ولا يبقى غير العذاب الذى سيحاصرها بكل الوسائل وهى وحيدة فى مهب الرياح العاصفة دون أب أو أخ أو خال ولا عم.. شغلت مكان أمها فى السوق.

هذا الطريق الذى تمضى فيه سيارة جابر سارت عليه مع صلاح وداست معه على كل حجر وعلى التراب والأسفلت.. عبرت شريط السكك الحديدية القديم الذى قال صلاح إنه سكة قطار البضائع المتجه من وإلى حلوان قادماً من العباسية، والآن أصبح على امتداد كيلو مترين مشغولاً بالباعة والبضائع وزبائن سوق الجمعة.. شرق كوبرى التونسى.. تضخم السوق.. كل يوم يمتد فى كافة الاتجاهات ويخلق لنفسه المسارات والناس والبضائع. كيان عجيب ومثير.. قال صلاح إنه نموذج مثالى للحياة المصرية.. ما كل هذه المسافات التى قطعاها معا من الأبجية والسيدة عائشة إلى التونسى والإمام الشافعى والسيدة نفيسة ومجرى العيون إلى الفسطاط، وميلا إلى السيدة زينب وأحمد بن طولون وباب زويلة والمعز لدين الله والغورية وخان الخليلى والحسين ومسجد الرفاعى والسلطان الحسن والخليفة.

. كنا مجانين بجد.. دراعه على كتفى وهات يا كلام.. كلامه حلو وما بيخلصش، وأنا مش عايزاه يخلص.

تنهدت وتساءلت:

. يا ترى إنت فين يا صلاح دلوقت.. الله يسامحك.. خمس شهور ما اشوفكش.. أزاى يجيلك قلب تنسانى وتنسى ابنك، وأنت عارف إنه جى.

وصلت السوق. فرشت بضاعتها وهى تلتقط أنفاسها بصعوبة. الجنين يكبس على مراوحها.. تشعر بوهن لم تشعر به من قبل.. رتبت الشيلان والإيشاربات والطرح.. أرسل لها الخواجة مع سامى الكيال ثلاث ربطات قمصان نوم حريمى تجذب الزبون وترمى قرشين حلوين. تسند بيدها اليمين ظهرها مرة، ثم تسنده بيدها الشمال.

مرت عليها توحة وبشاير.. قبلاها وسألاها عن الأحوال.

. نحمده..

. ما ظهرش.

فرت الدمعة من عينها.

. لسه.

قالت توحة: أما واد ندل بصحيح.

أسرعت وردة: اخص عليك يا توحة، أوعى تقولى عليه كده حتى لو غاب العمر كله.

ابتسمت توحه بفرح: آه من الحب.. براوة عليكى يا بت.. فرجه قريب.

. ما لناش غيره.

. وازى العفريت.

. يظهر عفريتة.

. كشفتى ؟

. قالوا لى مادام هادية.

قالت توحه:

. صح.. مادام هادية تبقى بنت، ولو إنها ساعات تخِلف.

قالت بشاير:

. المهم الستر والسلامة

فرحت بقمصان النوم ودعت للخواجة الطيب.. فرشت بعض

القمصان الساتان ذات الألوان المبهجة، وسرعان ما أقبلت السيدات والبنات وتساهلت فى الأسعار.. كانت تحب البيع حتى لو بمكسب بسيط أو حتى بدونه.

الله جاب. الله خد.. الله عليه العوض.. نعمل اللى علينا وبس.

كان عليها أن تقف مكان أمها وتذكرت أن أمها اضطرت للوقوف على الفرش مكان أبيها الذى رحل بعد أن دخل السجن. دخل السجن بسبب الحشيش ومات بسببه.. قلب أمها مهدد، قالت إن هذا المرض وراثة فى العائلة فأمها ماتت به وعمها.

عرفت صلاح أمام مسجد قايتباى.. كانت عائدة مع أختها بعد أن أحضرتها من مدرسة الخليفة الابتدائية.. شكت أختها من الظمأ عدة مرات، فلما اقتربتا من المسجد اضطرت أن تسأل من فيه عن الماء.. كانت هناك سقالات من خارج المسجد وداخله.. التقاها صلاح.. طلبت منه الماء لأختها.. رد عليها بأدب:

. من عينيه.

أحضر الماء على عجل.. وبينما أختها تشرب.. سألته:

. طولتوا فى الترميم.

. قربنا.

. كان لازم فعلا يترمم.

. خاصة بعد زلزال ١٩٩٢

. فين شغل زمان.

. البال كان رايق.

شربت هى الأخرى وشكرته ومضتا، خرج وراءهما صلاح.. لا تدرى السر فى إنها وقفت ونظرت وراءها.. تعلقت العيون لحظات.

بعد وفاة أمها اضطرت كى تسبك العملة بدلاً من الفضيحة أن تسافر إلى أقاربها وتتغيب أسبوعاً فى بركة السبع ثم تعود إلى بيتها.. تسرب خبر زواجها من ابن عمها الذى سافر إلى الإمارات.. ساعدتها مديحة على ذلك..

حزنت جدا لرحيل أمها التى كانت كل شئ فى حياتها، طمأنت

نفسها وهدأت من حزنها بأن ربنا رحيم.. هى ميتة ميتة.. موتها قبل ما تعرف أرحم لها ولى..

حدثها عن قايتباى الذى حكم مصر ٢٨ سنة وكان اسمه الأشرف سيف الدين قايتباى، واحد من أشهر السلاطين المماليك.. قالت له إنها حصلت على الثانوية العامة وكانت تحب التاريخ جدا، وتجتذبها سير العظماء.. قال لها إن عهده كان أفضل العهود فى بناء المساجد والمدارس والقلاع سواء فى مصر أو فى سوريا، وكلها تتميز بالنقوش الجميلة والحليات.. اصطحبها لتشاهد المسجد الفسيح وعمارته الرائعة. حدثها عن المنبر المطعم بالصدف والسقف المنقوش والزجاج الملون والمشكاوات والمقرنصات والنوافذ وأركان تعليم القرآن والحديث.

قال لها إنهم كلفوه بالعمل فى مسجد قايتباى، واشترك قبل ذلك فى ترميم مسجد ابن طولون والمؤيد والشيخ برقوق وأنه يحب عمله جداً لأنه يجمع بين أشياء جميلة كثيرة مثل الفن والعمارة والتاريخ، وقد تعود أن يقرأ كثيراً عن كل من يشارك فى ترميم أثره.

ضحكت لما قال لها: الناس غير متنبهة إن أهم مهنة فى الدنيا هى مهنة المرمم.

قالت: عمرى ما سمعت عنها أصلاً.

سألها: إيه فى الحياة مش عايز ترميم؟.

حدقت فيه بدهشة: قصدك لما يكون بيت قديم وآيل للسقوط.

قال بثقة: مش بس البيوت.. كل شئ فى الحياة.. الطب ترميم.. كثير من قرارات الدولة ترميم.. الأكل ترميم.. عمل الخير ترميم.. الحب نفسه ترميم للقلوب.. إصلاح الأجهزة.. الأجازات.. صلاة الجمعة.. التوفيق بين المتخاصمين ترميم.. ترقيع الملابس والأحذية.

تحس اليوم دبيبا لم تحس به من قبل، لكنها تندمج مع حركة السوق، والبيع يلهيها.. قالت لها توحة ألا تقعد وتظل واقفة وتتحرك حتى يأتى الفرج.. البنت لابد تتقلب أو تعدل نفسها.

قال صلاح لها يوما وكانا يجلسان على عشب حديقة قلعة محمد على والأفق مفتوح، والدنيا تحت أقدامهما والجو بديع، والقلوب متأهبة للسعادة:

. باقى شهرين فقط وينتهى العمل فى قايتباى.. لازم نسلمه آخر مارس ولن يسمحوا لى بالغياب ولا يوم.

. أنا حامل يا صلاح.. لازم تتصرف.

. لن أتركك أبدا.. إنتِ هدية من ربنا.

. أنا مرعوبة.

. أرجوكِ تثقى بى.

أغمضت عينيها وأخذت نفسا عميقاً وقالت:

. طمنتنى.. ربنا يطمنك.

أمسك ذقنها التى يمتدحها دائما وقال:

. يللا بقى نسمى العيال.

. لو جه ولد ح سميه جمال.. إيه رأيك ؟

. ليه جمال.

. على اسم أخويا اللى مات.. كان ناوى يبقى ظابط شرطة.

. أنا موافق على الاسم، بس مش علشان أخوكى.. سامحينى.

. عارفه ليه عاجبك الاسم.

. ولو بنت؟.

. أنا سميت الولد.. سمى إنت البنت

. أنا مجهز اسم ح يفرحك.

. يا ريت يعجبنى ويكون أحسن من الأسماء اللى اخترتها.

. ندى الورد.

. الله يا صلاح.. اسم جميل قوى

. ده اسم بنت من بنات قايتباى.. عجبنى.

لم يرد أن يقول لها: إنها بنت من بنات الغواية.. طرد الفكرة.

دخل صلاح قلبها يوم أن مرت مع أختها أمام المسجد، وفوجئت بالصغيرة تصطدم بالرصيف وتسقط، وبدا إنها موشكة على السقوط مرة أخرى، وإنها فاقدة لتوازنها.. جسمها النحيل

يتهاوى.

أسرعت تنادى صلاح فخرج بلهفة وحمل البنت.. سارا معا نحو البيت فى الأبجية التى تبعد نحو مائتى متر، وكان عليه أن يصعد بها جبل المقطم الذى تحط على هضابه بيوت الأبجية. صفوف من البيوت عن يمينه وشماله.

يمضيان على الطريق الجبلى الصاعد بينها، تحاول وردة أن تأخذها منه فيرفض بشدة.. حتى وصلا.. قدمته لأمها وعرض أن يحضر الطبيب لكنهما شكراه.. ألحت أمها فى بقائه.. استأذن عائدا إلى عمله، لتبدأ بعد ذلك المودة اليومية مع مرورها به ويفاجئها بالشيكولاته لها وللطفلة ولأمها، وتحمل له أحياناً من أمها طعاماً أو حلوى منزلية.

لام نفسه كثيرا ولامت نفسها، كيف سمحا لنفسيهما أن يتمرغا على سجادة العواطف الناعمة حتى يبلغا الذروة. غابت عنه عدة أيام فذهب يسأل عنها.. كانت إلى جوار أختها المريضة وأمها فى السوق تبادلا القبل.. أول مرة شخص يلمسها وهو الحبيب الذى تهيم به وهى الحبيبة روح حياته.. لم تكن تتصور أن قبلته إلى هذا الحد شهية، وإنها تكتب على روحها كلاماً عجيباً وتفعل بها فعل السحر.. فاستسلمت للقبلات التى سحبتها إلى الرمال المتحركة والقاع.

الجنين فى بطنها يتقلب ويخبط، وهى تنشغل عنه بالناس والحركة والبيع وترتب البضاعة وتبتسم فى وجوه الزبائن وتشارك النسوة اختيار ما يليق بهن.

لا يغادر وعيها صلاح، ولا يفتأ يتحدث إليها وهى لا تشبع من كلامه.. حكى لها قصة أحمد بن طولون ومحاولته الاستقلال بحكم مصر وتجاهل الخلافة الإسلامية فى بغداد، وقصة قطر الندى وزواجها العجيب.. حكى لها عن المماليك والقلعة ومحمد على وجدد لها المعلومات التى درستها.. أدهشها ولا يزال حديثه عن طومان باى أشرف المماليك وأنبلهم والذى هزمه العثمانيون وشنقوه على باب زويله لأنه قاومهم طويلاً ولم يستسلم

بسهولة..

ها هو أمامها بوجهه المشرق ولسانه الحلو وبساطته وحنانه لا يحكى لها فقط عن أعلام التاريخ الكبار ولكنه يقص عليها حكايات النحاسين والخيامية والسروجية والمسافر خانة ومجرى العيون.. وتتمنى ألا يتوقف.. ذراعه على كتفها يمشيان وقد نسياً العالم.

تمنت لو يظهر من جديد ويمشيان معا، ويتجولان فى تلك الأحياء الشعبية القديمة التى لا تفقد بهاءها أبدا ولها روائح غريبة مثل البخور والمسك.. حالة تتلبس كل من يمر بها.. حالة ترمم الروح.. تنبهت إنها أصبحت تتكلم مثله.

طبطبت على قلبها وقالت: لا أجمل فى الدنيا من الحبيب الوفى.

أحست فجأة أن روحها تكاد تنسحب منها.. صرخت. تداعى جسمها رغما عنها.. لمحتها نجاة ابنة توحة..اندفعت تنادى أمها.. وسرعان ما كانت توحة تدخل بحجرها تحت رأس وردة وتطلب منها التحمل وذكر الله.. قالت لها إن الخبط هبط إلى فم الرحم.. رفعت توحة رأسها إلى السوق لتستطلع المشهد.. آيات القرآن تتردد فى الفضاء قبل صلاة الجمعة.. تتسلل موجات الرضا إلى النفوس مع الكلمات المقدسة.. فكرت توحة.. يوم مبارك بإذن الله.. البنت بكرية.. يجب أن نلجأ للمستشفى، الزحام يملأ المكان ويسد عين الشمس.. جست بيدها أسفل بطن وردة.. أيقنت أنها ستلد فى الطريق.. ظهرت بشاير.. طلبت منها توحة تسخين حلة ماء على وابورها.. أسرعت بشاير وأرسلت بدلا منها نجاة.. فكرت توحة فى رشدى وفرج وحكيم تجار الموبيليا القديمة.. هل تحملها إليهم.. لكن المسافة كبيرة، والموضوع حساس..

. فيه بهدلة وميه ودم وخلاص وحكاية.. ليه نحرج الناس.

أخذت تتلفت على فرش كبير، وجدته إلى جوارها مباشرة.. فرش شفيق بائع عجلات الأطفال.. جرَّت وردة تحته.. وردة فاقدة الوعى تقريباً. صفعتها توحة على خديها عدة مرات برفق وهى

تقول:

. احذقى.

ردت وردة بوهن شديد:

. مش قادرة.. إنت فين يا صلاح ؟.

. مش وقته.. احذقى جامد وقولى يا رب.

. يا رب.. ابعت صلاح وساعدنى.

عندما دخلت توحه وهى تجر وردة لاحظت أن المكان يشبه الخيمة.. رضيت عنه.. طلبت من ابن العجلاتى يفرش ملاءة كى يغطى بها الجانب العارى.. طلبت وسادة.. حضرت فى الحال ثلاث وسائد.. طلبت ملاءة حضرت فى الحال ملاءتان.. طلبت منديلا.. وصل ثلاثة، دست أحدها فى فم وردة، وقالت: احذقى.

أيادى من وراء الملاءات تمتد بالمطلوب وأيادى من تحتها تتسلم.. وصل كل المطلوب ووصلت النسوة ولم يبق غير الفرج.

قبل أن ينتهى العمل فى المسجد بأسبوع وحوالى الساعة الرابعة خرج صلاح من عمله إلى الشارع. تمشى قليلاً نحو محطة الأتوبيس، وقبل أن يصل المحطة هجمت عليه سيارة فخمة جدا فأوقعته وهرست عظام رجليه.. الساقان والفخذان، اضطرت السيارة المسرعة للتوقف لأن السائقة الجميلة فوجئت بأن الأتوبيس أمامها يسد الطريق. أسرع إليها الجمهور صارخين فيها، قالت لهم:

. بدل الثورة دى شيلوه بسرعة.. حطوه فى العربية علشان أوديه المستشفى.

اهتم بعضهم بتسجيل رقم السيارة وانحنى الآخرون فسحبوا صلاح من تحت السيارة وحملوه، وقبل أن يفتحوا الباب كانت السائقة الشابة قد طارت بعد أن تحرك الأتوبيس، وصلاح فى غيبوبة كاملة.

نقلوه إلى المستشفى وجاء الضابط ومساعده للتحقيق.. سلمهم الشهود بيانات السيارة، حضر أمين الشرطة إلى المستشفى فى اليوم التالى وقال لأهل صلاح إن الأرقام غير

صحيحة وغير موجودة بالمرور.

أثر ارتطام رأس صلاح بالرصيف على وعيه، وواصل الأطباء علاجه بوضع المسامير والشرائح والتجبيس مرة بعد أخرى، وهو يكاد لا يدرى من أمره شيئا.

ابن خاله ضابط فى شرطة السياحة له صديق رائد فى شرطة المرور طلب منه البحث عن الأرقام.. قال له بعد البحث إن الأرقام رفعت تماماً من القوائم وتم تركيب لوحات جديدة للسيارة التى ضربت صلاح ولا تشغلوا بالكم.. الموضوع انتهى.

انتظرت وردة طويلاً وبطنها لم تكن تنتظر ولا الجنين.. واصلت بقدر ما يتاح الوقت السؤال عن صلاح.. العمل انتهى فى المسجد.. إدارات هيئة الآثار كثيرة وفى كل مكان.. لا تعرف غير أن اسمه صلاح.

كل شئ كان ضبابيا والرؤية غائمة، والذاكرة تخلو من المعالم.. كل ما فيها يفر.. تدريجياً ومع عمليات الترميم المتواصلة بدأ صلاح يسترد وعيه ويتنبه لمن حوله ويسأل عن وردة، ولا أحد يعرف من هى وردة.. يعرف بيتها الذى زارها فيه عدة مرات سواء فى حياة أمها أو بعدها.

أخيرا وعلى عكازين يحملانه من تحت إبطيه استطاع أن يذهب بسيارة أجرة إلى الأبجية.. صعدت به السيارة حتى بيت وردة، لم يجدها.. سأل عنها.. أنبأه بائع فى كشك مجاور إنها فى السوق، حملته السيارة إلى بدايات السوق ولم تتقدم.. مضى ينقل خطوة بعد خطوة ويحاول تذكر اسم سيدة كانت تجاورها وتحدثت عنها كثيراً.. حكت له عن المرأة الرجل.. المرأة الصديقة الكريمة الحنون.. المرأة الأم والحضن والأمان.. تعرض كثيراً للدفع من مسرعين لم يقصدوا لمسه، أوشك الزحام أن يتسبب فى سقوطه عدة مرات..

تذكر أنها كانت تبيع الشيلان والطرح.. على مهله سار يدقق فى البضاعة المعروضة وفى وجوه البائعات ورأسه لا يكف عن محاولة التقاط المفتاح.. قبل أن يسأل فتاة تبيع الشيلان والطرح

وقمصان النوم الحريمى.. كانت نجاة التى وقفت تبيع بضاعة وردة، تذكر اسم المعلمة توحة.. فسألها عن توحة.. خشى ألا تعرف وردته.

. قالت: فى مشوار صغير.. أى خدمة ؟

قال: لا.. كنت عايز أسألها عن..

نبتت فى خاطر نجاة نبتة صغيرة كما الياسمين، فاح عطرها على وجهها ألقا.

كيف عرفت نجاة إنه هو.. هل لأن وردة تحدثت معها عنه ووصفته تماماً.. أم أنه مجرد إحساس عابر أرادت الأقدار أن ترميه كالرهان على مائدة اللحظة المحمومة، وكم للأقدار من علامات وأسباب وألعاب!

ابتسمت نجاة وسألته فى شك يتأهب للفرح بالاكتشاف الذى تثق فى صوابه:

. إنت صلاح ؟

دهش صلاح واهتز فى وقفته.. كيف يمكن أن تعرفه فتاة بين مليون شخص فى السوق.

لم يستطع أن ينطق.. اضطر أن يهز رأسه مؤكدا إنه هو.. انقشع فجأة الغمام الذى كان يغلف الدنيا.

انحنت نجاة ورفعت الملاءة، فاجأها صراخ الوليدة

احمر وجهها وصرخت وانتفضت واقفة تهلل ثم قالت فى سعادة غامرة:

. ألف مبروك.. وشك حلو.

فرت الدموع من عينى صلاح وكاد يسقط. سقط بالفعل أحد العكازين.. همس.

. ندى الورد.

أحس أنه لا يردد الاسم وإنما يشمه.. مضى يشرب من عبير السعادة الذى بدأ بالعثور عليها.

أسرع إليه شاب بكرسى، جلس وسأل نجاة:

. ممكن أدخل ؟

انحنت نجاة ورفعت الملاءة.. حدقت فى وردة الغارقة فى العرق والذبول، بدا واضحا عليها الإنهاك بسبب الجهد الذى تطلبه خروج روح من روح عبر مضيق الحياة المذعور.

قالت بتردد فرحان: فيه واحد عايز يشوفك.

لم تستطع وردة أن تجيب ولا أن تخمن.

طلعت فيها توحة:

. واحد مين يا بت.. إنت مجنونة.

نهضت نجاة وأنزلت الملاءة.. قالت:

. كمان شوية.. هات له يا شوقى ينسون.

أخذ يتلفت حواليه ويبلل ريقه الجاف ويرفع وجهه إلى السماء ويتمتم بشكر الله ويمنع دموعه.

جاءه شوقى بالينسون.. طلب منه شراء باقة ورد من بائعة الورد القريبة.

رفعت نجاة الملاءة وانحنت تطلب الإذن

. الأستاذ صلاح عايز يدخل.

هبت وردة برأسها كأنها كانت تحلم واستيقظت فجأة:

. مين يا نجاة.. مين ؟

. حبيب القلب يا وردة

طفرت الدموع من عيون وردة ومن جسمها كله، دبت فيها بعض العافية.. التفتت إلى توحة وقالت:

. والنبى يا توحة أشوفه.

. مش وقته.

كانت الخيمة ممتلئة بالحلل والطشوت والمياه والدم والنساء.. بسرعة جهزوا المكان وأخلوه مما لا لزوم له..

ما زالت وردة تتوسل:

. أشوفه يا توحة.. سايقة عليكى النبى.

. هاتيه يا نجاة علشان نرتاح من مُحْن النسوان.

. القلب وما يريد يا توحة

كانت توحة بسرعة قد سوت شعر وردة ومسحت عرقها ومدت

يدها بكوب ماء بسكر.

رفع صلاح بحذر وتردد طرف الملاءة وقال:

. حمد لله على السلامة.

لاحظت وردة العكازين فانفرطت فى البكاء.. ارتبك صلاح وفهم سر بكائها.. مد يده بالورد ولم يستطع أن يقول:

. وحشتينى يا وردة.. سامحينى.

انسحب ليدارى دموعه، وتلفت حواليه، سأله العجلاتى:

. طلباتك يا فندى.

. عايز عربية تروحنا أنا ومراتى

. مراتك !

. وردة.

. حالا يا أفندى

ركبت نجاة معهما السيارة حاملة ندى الورد وأمها ملفوفة فى أحضان صلاح، حولها ذراعه والبطانية المرسوم عليها حصان، وباقة الورد تحت خدها، تميل عليها بين الحين والحين لتشمها وتغمض عينيها لتحتفظ بطعم الهناء الذى وصل أخيرا ليغلق كتاب الحزن.

بطاقة فهرسه
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية إدارة الشئون الفنية

قنديل/ فؤاد
سوق الجمعة/ فؤاد قنديل
القاهرة: دار كتاب اليوم، ٢٠٠٨.
ص١٢٥، ٢٠ سم. ـ (كتاب اليوم)
تدمك ٥ ١٣٧٤ ٠٨ ٩٧٧
١ـ قصص قصيرة.
أ ـ العنوان
٨١٣

رقم الايداع ١٩٠٣٧ / ٢٠٠٨
I.S.B.N.977-08-1368-1

مطابع أخبار اليوم ٦ أكتوبر


صدر من كتاب اليوم
صورة المرأة المسلمة في الإعلام الغربي
د. فوزية العشماوي
صكوك الغفران الأمريكية
معصوم مرزوق
USA
رجاء النقاش
أجمل قصص الحب
من الشرق والغرب
حصار الذاكرة
د. أحمد إبراهيم الفقيه
سري الصغير
مكاوي سعيد
الوردة لمرسيه
وللأندلس الريح
روكا والملك
عبد القادر محمد علي
الفسطاط

صدر من كتاب اليوم

















